ماهية الإنسان

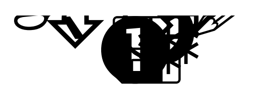
وصلتها بحريته ووظيفته الاجتماعية

من خلال رسائل النور

(دراسة تحليلية نقدية)

الدكتور عمار جيدل
رئيس قسم العقائد والأديان
كلية أصول الدين
جامعة الجزائر





بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحبه أجمعين.

اللهم نور قلوبنا بنور القرآن واجعل القرآن شفاء لنا من كل داء، ومونسا لنا في حياتنا وبعد مماتنا، واجعله لنا في الدنيا قرينا وفي القبر مونسا وفي القيامة شفيعا وعلى الصراط نورا ومن النار سترا وحجابا، وإلى الجنة رفيقا وإلى الخيرات دليلا وإماما بفضلك وحمدك وكرمك وإحسانك ورحمتك يا أكرم الأكرمين يا أرحم الراحمين،يا منزّل القرآن اجعل هذا الكتاب نائبا عني ناطقا بهذا الدعاء بدلا عني، إذا أسكت الموت لساني آمين، وألف آمين[1]، اللهم اجعل عملنا هذا خالصا لوجهك الكريم إنك على ذلك قدير وبالإجابة جدير.

وصلى الله على المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحبه الأكرمين وعلى من استن بسنته إلى يوم الدين.

د.عمار جيدل

الجزائر سحر يوم الجمعة

02 من جمادى الثانية 1421 هـ

الموافق 31 من أوت(أغسطس)2000 م

1 /مقتبس من دعاء النورسي،أنظر المثنوي العربي 79

بين يدي البحث

يعد هذا الكتاب امتدادا لمسيرة رسم خطتها ووضع مبادئها بديع الزمان النورسي، وسلك طريقها الاخوة القائمون على مؤسسة الثقافة والعلوم في استنبول - تركيا العزيزة -، فقد كان لهم الفضل – بعد الله - في استنهاض الهمم ووخز الضمير الإسلامي من أجل المساهمة في تجلية هذا المسلك الراشد، وقد كان رأس أولئك الرجال الأستاذ قاسم الصالحي، فقد كان بتفقده لأحوالنا ودعوتنا للمساهمة في تحليل رسائل النور أحسن سفير لتلك الرسائل، إذ رأينا فيه تجسيدا فعليا لها،فله منا كامل التحية والتقدير.

إن الكتاب الذي بين يديك أخي القارئ هو سياحة علمية عقلية وقلبية في ثنايا واحات رسائل النور، كان في الأصل محاضرة معدة للمساهمة في المؤتمر العالمي الذي ينعقد باستنبول في 24-2000/09/26 حول **"النظرة القرآنية للإنسان من خلال رسائل النور".**

فقمنا برحلة إضافية - زيادة على ما سلف - وضافية في ثنايا رسائل النورسي انتقلنا فيها من دوحة إلى دوحة ومن ثمرة إلى ثمرة أحلى،... وهكذا دواليك إلى أن استوت كما هي بين يديك، تعيش فيها إن شاء الله تعالى مع بعض الدرر والجواهر التي حوتها تلك الرسائل،إنها محاولة-أحسبها جادة - في القراءة الاستثمارية لمنتجات علمائنا المعاصرين في ظل النفي المسلّط عليهم من قبل أقرب الأقربين، وفي ظل القيام ببعض ما لهم علينا، فنعمل إكراما لهم ولنا، بنفي النفي وإقصاء الإقصاء في ظلال القرآن الكريم، لا نريد بذلك إلا خدمة القرآن الكريم و خدمته.

مقدمة الطبعة الأولى

كان الإنسان وسيبقى المشكلة الكبرى التي انشغل بها الفكر البشري منذ أمد بعيد، وقد رام رجاله تجاوز تلك المشكلة بالإعراض عنها حينا، وبالعقل ومنتجاته حينا آخر، ومن هذا القبيل سلّم أمره للفلسفة على تنوع مناهجها وغايات أساطينها، كما استجاب أحيانا أخرى إلى ما جاء به الأنبياء عليهم السلام... وقد توخى كل أولئك الكشف عن ماهية الإنسان، ليتسنى في ضوئها معرفة حريته عند البعض، والقيام بالوظيفة الاجتماعية لدى البعض الآخر، فهل كان الشيخ النورسي ميالا إلى إحدى الاتجاهات السابقة؟ أم أنه اختار اتجاها خاصاً يتوافق مع الروح القرآنية التي ملكت عليه أنفاسه؟ وما هي هذه الصورة التي رسمها القرآن الكريم للصلة بين ماهية الإنسان وحريته ووظيفته الاجتماعية ؟ تقتضي الإجابة عن الإشكالية السابقة وضع مجموعة من الفرضيات:

1/ لماهية الإنسان في القرآن الكريم دلالة معيّنة مضبوطة يحكمها التوحيد بمفهومه الحضاري المؤسس على التوحيد العقدي.

2/تعتبر ماهية الإنسان في القرآن الكريم محررة لحريته من مكبّلاتها، ومحددة لمسارها في العاجل انتصارا للآجل.

3/تعد تلك الحرية عاملا مهما في القيام بالوظيفة الاجتماعية المنتظرة، حتى ليخال للباحث أن المسلم يكون مفرّطا في القيام بوظيفته الاجتماعية بقدر تفريطه في حريته وماهيته.

4/ كان النورسي منضبطا بما حواه النص القرآني في تحديد ماهية الإنسان وأثرها صياغة حريته المتربّ عليها حسن القيام بوظيفته الاجتماعية.

5/حاول النورسي استثمار المنتج الثقافي الإسلامي في التعامل مع النص القرآني من خلال التوظيف المستمر لجهود المفسرين القدامى والمحدثين.

6/حاول النورسي صياغة نظرته اعتمادا على النص القرآني والنص القرآني وحده دون سواه كما يبدو من ظاهر بعض النصوص المنقولة عنه،فهل كان كذلك في حقيقة الأمر.

سنعمل على الإجابة عن تلك الفرضيات نفيا وإثباتا بإنجاز بحث عنوانه.

" ماهية الإنسان وصلتها بحريته ووظيفته الاجتماعية"

من خلال رسائل النور
دراسة تحليلية نقدية

تعتبر مشكلة الصلة بين ماهية الإنسان وحريته من جهة وصلتهما بالوظيفة الاجتماعية للإنسان من أهم ما شغل الفكر البشري منذ أمد بعيد، إذ القول بأن الإنسان وجد هكذا دون ماهية، وما ماهيته إلا ما يصنعه هو لنفسه ،فتكون الحرية من جرّاء ذلك ما يريده الشخص نفسه، ما هي في حقيقة الأمر إلا نظرة كونية وفلسفية معيّنة، وفي إطار هذا الفكر، يتبادر إلينا السؤال الجوهري التالي: إذا تعارضت الحريات فلمن تكون الغلبة في آخر المطاف؟ هل تكون لفكرة مطلق الإنسان أم أنها تكون لشخص معيّن، فرض رأيه بأسلوب من أساليب القهر والتسلّط؟

ومن فرض رأيه كان له أن يحدد للناس - وفق قانون الغالب -الوظيفة الاجتماعية وفق ما حدد به حرياتهم،وهنا يتبادر إلى الأذهان التساؤل الآتي:

ما موقف النورسي من هذه المقولة؟ وما هي ماهية الإنسان في فكر النورسي؟ وما الصلة بين الماهية والحرية عند هذا الرجل الفذ؟ وهل لهذا التحديد صلة بالوظيفة الاجتماعية؟

تلك هي التساؤلات المركزية التي تشغل الباحث ، وسيحاول الإجابة عنها، وفق الخطة التي رسمها في فرشة البحث.

كنت قد انتهيت في بعض ما كتبت عن النورسي إلى أنه شخصية قرآنية إلى النخاع، فقد جعل من أولويات التغيير المنشود بيان منزلة القرآن الكريم والسنة النبوية في سلم المعارف الإنسانية فضلا عن الإسلامية، إذ باكتشافها يتمّ التمييز بين المنتج المعرفي الزمني (والذي يجب أن يقرأ قراءة نقدية من قبل المتخصصين) والوحي الإلهي الذي جعله الخالق سبحانه وتعالى فوق الزمان والمكان، أي أنه يتعالى عن الخبرة المعرفية الإسلامية والإنسانية، ويسمح هذا الترتيب بتجاوز مجموعة من الأمراض النفسية والمعرفية، لعل أهمها:

* إهمال البعد الوظيفي للدين الإسلامي بسبب هيمنة الخبرة المعرفية (الزمنية) على الوحي (فوق الزمن)، وقد كان ذلك سببا في بعث الخلافات المذهبية من مرقدها.

* إشاعة القراءة التبركية أو التاريخية للقرآن والسنة المطهّرة،فأبعدت التلاوة الهدائية الخاشعة لله تعالى، وعوّضت بتعاويذ تكرّر هنا وهناك دون أن يكون لها أدنى أثر على أفعال المسلم.

* أبعد القرآن والسنة المطهّرة من خلال هذه القراءة من مصاف المصادر اليقينية للمعرفة الدينية (العقائد، والفقه، والأخلاق،..) كما أُبعد أيضا في مجال نشأة الكون وخلق الإنسان و مصيره.. [2]

وما دام الغرض من البحث وفق ما خطّه القائمون على المؤسسة هو الكشف عن الإنسان في مؤلفات النورسي، والنورسي كما بيّنا رجل القرآن،

---

2 / أنظر كتاب الحقائق الإيمانية عند النورسي (المنهج والتطبيق)عمار جيدل ، دراسة منشورة بمجلة الصراط العدد االثاني73-74

فإننا ملزمون من الناحية المنهجية ببيان أهمية القرآن بالنسبة للإنسان من خلال مؤلفات النورسي، فماذا يمثل القرآن بالنسبة للإنسان وفق ما ذكره النورسي؟

الفصل الأول

يعتبر القرآن الكريم مصدرا معرفيا وتربويا ضروريا من وجهين، أولهما جانب الموضوعات وثانيهما المناهج الموظّفة في بيان حقائقه.

يبيّن الأول أن القرآن مصدر اليقين في مسألة نشأة الإنسان الأول ووظيفته الكونية بالإضافة إلى معارف أخرى[3]، كما يعتبر ملفتا لانتباه العقلاء إلى المناهج المعرفية الواجب اتباعها في تحصيل كثير من المعارف[4].

يقول النورسي بعد ذكر أمثلة : " **فشاهد في ضوء هذه الأمثلة ثروة القرآن الطائلة وغناه الواسع في معرفة الله في ميدان العلم والحكمة...**

وهنا نجد في القرآن الكريم آلافا من القرائن حتى أنه يهب لكل ذي مشرب قرآنا منه،..."[5]

ويبيّن في سياق الجواب عن تساؤل البعض عن قولهم القرآن ما هو؟فيقول رحمه الله: **"هو الترجمة الأزلية لهذه الكائنات، والترجمان الأبدي لألسنتها التاليات للآيات الكريمات، مفسّر كتاب العالم... هو كشاف لمخفيات كنوز الأسماء المستترة في صحائف السماوات والأرض... هو**

---

3 /قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن/نديم الجسر 286،244،242
4 /المعجزة الكبرى/ أبو زهرة357
5 /الكلمات 151

مفتاح لحقائق الشؤون المضمرة في سطور الحادثات... هو لسان الغيب في عالم الشهادة...[6]

و ورد عنه أيضا "**إن القرآن الكريم يلقن الحكمة ويربي الإنسان في حياته الشخصية والاجتماعية فضلا عن رجحان القرآن الكريم على سائر الكلام وسموه على الأقوال قاطبة.**[7]

وبتظافر هذين الجانبين يتحقق العديد من الأهداف المعرفية والتربوية:

* هداية البشرية إلى طريق السداد والرشاد، يبيّن ذلك ما يظهر في القرآن من صور أوفى وأرقى ما عرفت البشرية وعرف تاريخ الهدايات، فكانت في أبهى صور الإقناع شاملة لجميع مجالات الحياة. فقد "**أبدع القرآن الكريم وأتى بالرائع المعجب في تصوير أدق فروع أركانه الخمسة وحافظ على جمال التناسب وكمال التوازن فيما بينها، بل حافظ على أبسط آدابها ومنتهى غاياتها وأعمق حكمها وأصغر فوائدها وثمراتها وأبهر دليل على ذلك هو كمال انتظام الشريعة النابعة من نصوص ذلك القرآن الجامع ومن إشارته ورموزه...**[8]

* تعريف البشر بمعبود هم سبحانه وتعالى، وتحقيق الأجر بالتلاوة: من قرأ حرفا من كتاب الله له أجر[9]، فكان طلب الثواب من التلاوة طريقا للمعرفة والالتزام.

قال النورسي: **إن حكمة تكرار القرآن الكريم من (خلق السماوات والأرض) و(رب السماوات والأرض) إنما لأجل الإرشاد إلى هذه الحقيقة**

6 /إشارات الإعجاز في مظان المجاز 22
7 /الكلمات 142
8 /المرجع السابق141
9 /أنظر بحثنا رسالة الإنسان في الإسلام 3

العظيمة المذكورة، وتلقين هذا البرهان الباهر للتوحيد ولأجل تعريفنا بخالقنا العظيم سبحانه"[10]

ولهذا حق لنا أن نقول بأن القرآن الكريم هو كتاب صلة الإنسان بالله والتي في كنفها تكون صلته بسائر أجزاء الكون، صلته بأخيه الإنسان، صلته بعالم الجماد ،...[11]، فهو كما قال النورسي **كتاب قد نزل لأجل الإنسان.**[12]

تجليات أهمية القرآن للإنسان:

تتجلى أهمية القرآن بالنسبة للإنسان في أدبيات النورسي من وجوه عديدة نجملها في النقطتين، أولاهما تتناول التجليات العامة، وتخصص الثانية للتجليات الخاصة:

أولا: التجليات العامة

1/ يؤكد النورسي في أكثر من موضع من كتبه على أن القرآن الكريم مرشد المؤمنين وأستاذهم وإمامهم ودليلهم في كل أعمالهم... وما تمدح كلماتهم في الحاضر أو المستقبل إلا بقدر ارتباطها بالقرآن الكريم[13]، ولهذا ما سمح لرسائل أن يكون لها القبول والانتشار إلا بسبب تعلقها المباشر بخدمة القرآن الكريم وحقائقه.[14]

2/ القرآن الكريم يحتمي به المؤمنون لأنه قلعة عظيمة حصينة ، محفوظ يحفظه الرب الكريم بقوله تعالى (**إنّا نحن نزّلنا الذكر و إنّا له لحافظون)** (الحجر: 9)... لهذا لن تستطيعوا أن تدفعونا _ باختيارنا - إلى طريق يؤدي

10 /الكلمات178

11 /العبادة في الإسلام/القرضاوي49-52

12 /الكلمات 292

13 /المكتوبات 476-484،477

14 /من أكر المعاني تكررا في رسائل النورسي

حتما لآلاف الأضرار التي تلحق بحياتنا الأبدية خوفا من إلحاق ضرر بسيط باحتمال واحد من بين ألوف الاحتمالات بحياتنا الدنيوية القصيرة هذه"[15].

3/ جميع اللطائف العلية تتلقى من القرآن الكريم مباشرة، وهذا يدل على أنّ القرآن الكريم مثلما يعبر عن الحقائق في كل زمان فإنه يفيض بفيوضات الولاية الكبرى إلى من هو أهل لها في كل وقت".[16]

4/ القرآن الكريم كما هو منبع الحقائق فإنه أصل الكلمات التي تترجم أنواره التي تتجلى في وظائف عدّة ، فالأنوار المفاضة من القرآن الكريم ترشد العقل وتعلمه مثلما تلقن القلب أيضا بأحوال إيمانية كما تطعم الروح أذواقا إيمانية.[17]

5/ إن القرآن الكريم الذي هو رحمة للبشرية كافة، ومن مقتضيات تلك الميزة تراه يقبل المدنية التي تكفل سعادة العموم أو في الأقل سعادة الأكثرية المطلقة[18]، وبهذا أمدّه الخالق بعناصر البقاء والانتشار والفاعلية.

6/ مبنى الشريعة الإسلامية [19] على القرآن الكريم، وميزاتها مستمدة منه،فقد كانت تلك الشريعة بالقرآن وذلك باستنادها على الحق بدلا من القوة، والحق من شأنه العدالة والتوازن، وهدفها الفضيلة بدلا من المنفعة، والفضيلة من شأنها المودة والتجاذب،وحدتها الرابطة الدينية، ورابطتها الأخوة المخلصة والمسالمة الجادة والدفاع فقط عند الاعتداء الخارجي، دستورها في الحياة التعاون بدلا من الجدال والصراع، والتعاون من شأنه الاتحاد

---

15 /المرجع السابق537
16 /المكتوبات 459
17 /المكتوبات 460(بتصرف)
18 /المكتوبات 606
19 /استعملنا المصطلح الأصلي عوض قول النورسي الأحمدية خشية تلبّسها بالطائفة الأحمدية في الهند و باكستان.

والتساند، وتضع الهدى بدلا من الهوى، والهدى من شأنه رفع الإنسان روحيا إلى مراقي الكمالات"[20]

7/ يحقق القرآن العدالة المحضة،فلا يسمح بهدر دم بريء ولا زهق حياته حتى ولو كان في ذلك حياة البشرية جمعاء،لأنهما في نظر العدالة سواء كما كان في نظر القدرة سواء.[21]

ثانيا: التجليات الخاصة

1/القرآن الكريم تتعدى جمله المعنى الواحد، فهي في حكم الكلي يتضمن معاني لكل طبقة من طبقات البشرية، وذلك لكون القرآن الكريم خطابا لعموم طبقات البشر،لذا فالمعاني المبيّنة هي في حكم جزئيات لتلك القاعدة الكلية، فيذكر كل مفسّر، وكل عارف بالله جزءا من ذلك المعنى الكلي ويستند في تفسيره هذا إما إلى كشفياته أو دليله أو إلى مشربه، فيرجّح معنى من المعاني...[22]

2/ وقد أكد النورسي هذه المعاني في كثير من رسائله منها حين حديثه عن عمومية الخطاب القرآني، أنظر قوله: "إن القرآن أنزل وأنزلت مائدة سماوية، يوجد فيها كل أنواع ما تحتاج إليه طبقات نوع البشر المتفاوتين في اشتهاء الأفهام.. في المائدة أطعمة مترتبة، قدّم أولا في وجه السفرة الإلهية رزق الأكثر المطلق والجمهور الأعظم، أي العوام...[23]

3/ مراعاة القرآن الكريم لجمهور العوام وبساطة أفكارهم، فتراه يكرر ويكثر الآيات الواضحة المسطورة في جباه السماوات والأرض فيقرؤهم الحروف الكبيرة الظاهرة التي تقرأ بكمال السهولة بلا شبهة...[24]

---

20 /المرجع السابق 607

21 /المرجع السابق608

22 /المكتوبات 422

23 /المثنوي العربي 223، انظر اللمعات 65، 178، 179، إشارات الإعجاز 20، 49، 227،

24 /المثنوي العربي 280،أنظر أيضا 321...،و أنظر صيقل الإسلام 153

4/ يتضمن القرآن الكريم الأجوبة لمكررات أسئلة الطبقات المختلفة البشرية بألسنة الأقوال والأحوال، تكرار الآيات الكلمات للدلالة على تكرر الاحتياج، وللإشارة إلى شدة الاحتياج إليها، لتنبيه عرق الاحتياج وايقاظه، وتشويق الاحتياج، ولتحريك اشتهاء الاحتياج إلى تلك الأغذية.[25]

5/ و يتجلى كونه كتاب النوع الإنساني في رسائل النورسي في كثير من المظاهر لعل أهمها ما صرّح بها هو نفسه:

أ/ صرّح الشيخ النورسي أن **مقاصد** القرآن الكريم الأساسية وعناصره الأصيلة في كل جهاته أربعة: إثبات الصانع، والنبوة، والحشر الجسماني، والعدل [26]، وأضاف إليها في مواضع أخرى العدالة[27]، ولا شك أن المقصود بكل تلك المقاصد هو الإنسان لهذا حق لنا أن نقول أن القرآن الكريم هو كتاب الإنسان ، أو هو كتاب صلة الإنسان بالله.

و يصرّح في مقام آخر أن المقصد الأعلى والأصلي **إرشاد** الجمهور إلى أربعة أساسات هي إثبات الصانع الواحد، والنبوّة، والحشر والعدالة[28]، وقد أضاف إلى ما سلف العبودية في رسالة أخرى حيث يقول: " مقاصد القرآن الأساسية وعناصره الأصلية أربعة،التوحيد، والرسالة، والحشر، والعدالة مع العبودية"[29]

يبيّن لفظا الإرشاد والعبودية أن القرآن الكريم من خلال مقاصده كتاب الإنسان من جهة كون تلك الإرشادات والمقاصد موجهة في أصلها لخدمته في العاجل والآجل.

---

25 /المثنوي العربي 70
26 /صيقل الإسلام 120،29
27 /المرجع السابق 155،انظر في هذه المعاني إشارات الإعجاز 61،..
28 /إشارات الإعجاز 177
29 /المثنوي العربي 75

ب/ ورد عنه في أكثر من موضع أنّ القرآن الكريم كتاب الإنسان بما له من ميزات متعلقة أساسا بالإنسان، فقد سماه الخالق سبحانه وتعالى ذكرا، وفرقانا، و... كلها تدل على وظيفتها في الإنسان الذي أنزلت من أجله، وقد عبّر عن هذا المعنى قول النورسي: "إن القرآن الحكيم كتاب ذكر، وكتاب فكر، وكتاب حكم، وكتاب علم، وكتاب حقيقة وكتاب شريعة، وشفاء لما في الصدور، وهدى ورحمة للمؤمنين".[30]

ج/ المسلم يكون أهلا لتلك الصفة حال الالتزام بأحكام دينه، ولا يتأتى له ذلك الالتزام قبل معرفة منبع ذلك الدين وأساسه، معلوم أن القرآن الكريم مؤسس هذا الدين العظيم المتين ولأساساته، وأساسات لهذا العالم الإسلامي، مقلب لاجتماعيات البشر ومحولها ومبدلها، ولا بد للمؤسس من التكرير للتثبيت، ومن الترديد للتأكيد، ومن التكرار للتقرير والتأييد"[31]، لهذا فمن منطلق الحفاظ على التديّن في صورته الإيمانية الحفاظ على الموقع السامي للقرآن الكريم في المجتمع، وهو ما رام تحقيقه النورسي من خلال رسائله وأتباعه.

د/ يحوي القرآن الكريم الجواب عن الأسئلة التي تساءل عنها الإنسان ونقلتها الحكمة منذ فجر التاريخ، فقد سأل النورسي الكائنات وتساءل معها من أين؟ وبأمر من تأتون؟ من سلطانكم ودليلكم وخطيبكم؟ وما تصنعون؟ وإلي أين تصيرون؟[32]

هـ/ يعتبر القرآن الكريم منبع الإصلاح وخطواته على مستوى النفس والمجتمع، فهو منهل السبل الصائبة، وقد لخّصها النورسي في طريق العجز، والفقر، والشفقة، والتفكر[33].

---

30 /المثنوي 231 ، 70
31 /المثنوي 71
32 /صيقل الإسلام 29
33 /المكتوبات 594-595

و/ مزاوجة المعرفة القرآنية بين مطلبي القلب والعقل، وليس ذلك إلا لأن القرآن الكريم هو كتاب الإنسان، فكانت معرفة حضورية يعيش آثارها المؤمن بقلبه وعلقه ويترجمها إلى مواقف معيشة،قال النورسي: "المعرفة المستقاة من القرآن الكريم تمنح الحضور القلبي الدائم".[34]

وقال أيضا في سياق الحديث عن رسائل النور و خصائصها المستفادة من القرآن: "فهي تنقذ أسس الإيمان وأركانه، لا بالاستفادة من الإيمان الراسخ الموجود، وإنما بإثبات الإيمان وتحقيقه وحفظه في القلوب وإنقاذه من الشبهات والأوهام بدلائل كثيرة وبراهين ساطعة... تحرك **بخطى اتحاد العقل والقلب معا وامتزاجهما، وتعاون الروح واللطائف الأخرى، فتحلّق إلى أوج العلا وتصل إلى مراق لا يصل إليها نظر الفلسفة...**[35]

6/ يساق جمهور الناس إلى اتباع القرآن الكريم وامتثال أوامره لما يتحلى به من قدسية، هذه القدسية هي التي تدفع جمهور الناس إلى الانقياد أكثر من قوة البرهان ومتانة الحجة، فينبغي إذن أن تكون كل كتبنا المبنية عليه شفافة تعرض قدسية القرآن الكريم، وليس حجابا دونه، أو بديلا عنه.[36]

7/ القرآن الكريم يمثل المواجهة الدائمة للتقليد بالتأصيل لما يحويه من الضروريات الدينية التي تنال منه مباشرة[37] بشوق ينبّه الوجدان إلى الاقتداء، من هذا المنطلق يعد القرآن أصل جميع المنتجات المعرفية عند المسلمين، وهذا يقتضي أن تكون تلك المعارف شفافة لعرض القرآن الكريم، ويتجلى هذا لأمر فيما يأتي:

---

34 /المكتوبات 425
35 /الملاحق 105،أنظر 110،111
36 /صيقل الإسلام 347
37 /صيقل الإسلام 348

أ/ الأصل أن تكون كتب الفقه شفافة لعرض القرآن الكريم وإظهاره، ولا تصبح حجابا دونه وفق ما آلت إليه من جرّاء بعض المقلّدين، لأنها أن التزمت بعرض شفاف للقرآن كانت بمثابة تفسير بين يديه وليست مصنفات قائمة بذاتها[38]، وهذا يعطيها عناصر الفاعلية في النفس البشرية لما تحويه خطابات القرآن من مزاوجة بين قناعة العقل وخضوع القلب.

ب/ ينبغي أن تقوم كتب علم الكلام أيضا على عرض شفاف للقرآن الكريم، وبالتالي تصبح أشبه بالتفسير لكتاب الله تعالى، وما غيابها عن التأثير في الماضي والحاضر إلا بسبب الغيوم الكثيفة التي ينتجها العقل الكلامي البعيد عن هدي القرآن الكريم، وقد عبّر عن هذا المعنى النورسي حين نقد أهله بإفراغه في مسلك طويل ذا مشاكل لعدم بقائه مصانا من الأوهام والشكوك.[39]

ويقول أيضا: "إن علماء علم الكلام و أئمة أصول الدين والمحققين الأفذاذ من أهل السنة والجماعة، بعد إجراء تحقيقات وتدقيقات كثيرة حول العقائد الإسلامية وإقامة المحاكمات العقلية والموازنات في ضوء الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، ارتضوا بدساتير في أصول الدين، تلك الدساتير تأمر بالحفاظ على مشرب (القرآن الكريم) رسائل النور الحالي، وتمدّها بالقوة..."[40]

ج/ وتنطبق الملاحظة نفسها على المنتج الإسلامي في التصوف، فقد كان بسبب العرض الناقص سببا في ابتعاده أحيانا عن التوسّط في تحقيق مقاصده، واقصر طريق لتبليغ مقاصد التصوف الالتزام بما حواه القرآن

---

38 /المرجع السابق نفسه
39 /أنظر المثنوي 428
40 /الملاحق 302

الكريم، فقد عبّر عنها بأقصر بأسلوب أوضح بيّن، لهذا على المتصوفة أن "يدركوا تماما سر الطريقة- في كونها وسيلة وليست غاية بحد ذاتها-"

وورد عنه في مقام التنبيه إلى البديل القرآني الهادف إلى المراجعة الدائمة للموروث بالقرآن الكريم: "إن آيات كثيرة من القرآن الكريم أمثال **(وما الحياةُ الدنيا إلاّ متاعُ الغرور)** (آل عمران: 185) تدل بوضوح على أن ثمرة واحدة من ثمرات عالم البقاء (القرآن الكريم) ترجح ألف بستان في هذه الحياة الفانية (المنتج البشري) "[41]

---

41 /المكتوبات 589-591

الفصل الثاني

تبيّن مما سلف تقريره أن القرآن الكريم [illegible] صلة الإنسان بالله و من خلال تلك الصلة يضبط علاقته بعالمي الجماد والإنسان، ففي كنفها تحدد صلة الإنسان بأخيه الإنسان وعلاقته بالحيوان والجماد وسائر المخلوقات، لهذا ليست هذه الصلة قضية معرفية يحشى بها العقل فحسب، بل هي بالإضافة إلى ذلك تعد أكثر من ضرورية من الناحية المعرفية (بوصفها منشأ التصورات وراسمة تنفيذها العملي) أولا، وكونها مسألة متعددة الأبعاد ثانيا، ففيها الجانب الاجتماعي والتربوي والفكري والاقتصادي.. ففي إطار تلك الصلة يتصرف الإنسان المسلم في علاقاته الاجتماعية والتربوية والاقتصادية.. فما من فعل إلا وتتدخل فيه إما في أصل الاتجاه نحوه أو تعديله أثناء العمل، لهذا تطفو تلك الصلة بضلالها على جميع ميادين الفعل الإنساني، وبذلك ستجلب عددا لا حصر له من الآثار الطيّبة على الإنسان والكون، منها على سبيل المثال لا الحصر:

1/ تمكّن هذه الصلة لبعد اجتماعي ظاهر بواسطة تحقيق مقصد معرفي، إن لتلك الصلة أثرا عظيما في وحدة المسلمين اللغوية والدينية في كلياتها، وهما عاملان رئيسان لتيسير التفاهم ثم التضامن، فتعظم شوكتهم، وتعلوا كلمتهم وفق ما أراده خالقهم منهم، إذ يعمل المسلك القرآني المطبّق في رسائل النور على تحقيق مجموعة من الغايات:

أ/ تحجب الكتب الفقهية بفعل بعض المقلدين الجامدين الحقائق الدينية الأصلية القرآنية، وذلك من خلال التركيز على النصوص الشارحة ممثلة في

المنتج الفقهي وإبعاد أصل ما جعلت له شارحة، فتصبح تلك الكتب نصوصا قائمة بذاتها بعيدة عن الأصل الذي كان يجب أن تتحرك به وفيه، ولتجاوز هذا الخطر يقترح النورسي: " **تحويل تلك الكتب الفقهية تدريجيا إلى كتب يستشف منها فيض القرآن الكريم، أي يصبح تفسيرا له، ويمكن أن يتم هذا باتباع طرق تربوية منهجية خاصة حتى تبلغ تلك الكتب ما يشبه كتب الأئمة المجتهدين من السلف الصالح أمثال "الموطأ " لمالك بن أنس، و"الفقه الأكبر" لأبي حنيفة النعمان، فعندئذ لا تقرأ هذه الكتب وغيرها بقصد ما يقوله مؤلفو تلك الكتب، بل يقرأ لأجل فهم ما يأمر به القرآن الكريم، وهذا الطريق بحاجة إلى زمن مديد.**[42]

ب/ ووفق المسلك السابق عملت رسائل النور على إعادة الاعتبار للقرآن الكريم من خلال " **شد أنظار الجمهور إلى مستوى أعلى من تلك الكتب -التي أصبحت حجابا - أي شدها إلى القرآن الكريم وإظهاره فوقها دائما، مثلما يفعل أئمة التصوف، وعندها تؤخذ الأحكام الشرعية والضرورات الدينية من منبعها الأساس وهو القرآن الكريم".**[43]

ج/ يحقق بعث الاهتمام بالقرآن الكريم التمييز بين الأحكام الشرعية والضرورات الدينية - المأخوذة من منبعها الأساس وهو القرآن الكريم - والأمور الاجتهادية التي ترد بالواسطة فيمكن مراجعتها من مظانها"[44]، وبالتمييز يقضى على كثير من موارد سوء التفاهم الواقع بين المسلمين بسبب تغييب القرآن الكريم عن الصدارة في التأسيس لدينهم وأخلاقهم، **وبهذا**

---

42 /صيقل الإسلام 348 بتصرف
43 /المرجع السابق 248-249
44 /صيقل الإسلام 349

نتجاوز خطر مزج الضرورات الدينية مع المسائل الجزئية الفرعية الخلافية.[45]

د/ ميزة القرآن الكريم أنه كتاب التوحيد والوحدة، فتتجلى فيه الوحدة الثقافية للمسلمين، وتوحيدهم لخالقهم، ولا يتحقق ذلك المقصد على مستوى التصرفات اليومية إلا إذا قمنا " **بتوجيه حاجات المسلمين الدينية كافة شطر القرآن الكريم مباشرة، ينال الكتاب المبين من الرغبة والتوجه ـ الناشئة من الحاجة إليه ـ أضعاف أضعاف ما هو مشتت الآن من الرغبات نحو الألوف من الكتب بل لكان القرآن الكريم مهيمنا هيمنة واضحة على النفوس، ولكانت أوامره الجليلة مطبقة منفذة كليا، وما كان يظل كتابا مباركا يتبرك بتلاوته فحسب ".**[46]

هـ/ يحقق القرآن الكريم وحدة المشرب والمنبع الذي تستقي منه كل تلك التخصصات وجميع المذاهب ،كما يحقق رغبة الجميع بالحفاظ عليه والنهل منه، لهذا " **لا يستطيع أي أحد حتى ولو كان من أهل البدع وفي أي مكان كان الاعتراض على هذا المشرب، ولما كانت حقيقة الإخلاص محفوظة فيه حفظا تاما يستطيع أي نوع من أنواع أهل الإسلام الدخول في دائرة رسائل النور، فالمتعصّب في تشيّعه، والمغالي في وهابيته، وأشد الفلاسفة مادية... وأكثر العلماء أنانية وتزمتا...** [47]

2/ كانت هذه الصلة عاملا مهما للمحافظة عليه وبقائه مصونا من التغيير والتبديل اللذين أصابا غيره من الكتب الإلهية، وهي من بين الطرق التي يحمي القرآن بها نفسه بنفسه وينفذ حكمه[48] وهي بمثابة حماية ذاتية.

---

45 /صيقل الإسلام 349
46 /صيقل الإسلام 349
47 /الملاحق 202- 303
48 /الكلمات 878

إن القرآن الكريم هو كتاب صلة الإنسان بالله ومن ثم بالكون وأخيه الإنسان، فيضبط كثيرا من تصرفاته في عالم المعرفة والموقف الاجتماعي وسائر شؤون الحياة، وهذا بما يضع من موازين ضابطة لكثير مما يحتاجه في شؤون معاشه ومعاده، فهو مصدر الفقه (الضابط لتصرفاته المدنية والدستورية و..) وهو مصدر التربية الروحية (الضابطة لحركات نفسه وقلبه والكاشفة لأمراضهما..)، من هذا المنطلق ولما له من أهمية في حياتنا الدينية والدنيوية حمي من التحريف سواء بالزيادة أو بالنقصان، بل كان الرجوع إليه عاملا مهما في المراجعة الدائمة لتفاسيره الفقهية والعقدية التحليلية منها والموضوعية، فقد الرجوع إلى القرآن عاملا رئيسا في الاستدراك على مؤلفات المتقدمين واستثمارها.

3/ اقتضت حكمة الله أن يكون طريق طلب أجر تلاوة القرآن الكريم، سلما ضروريا للعروج إلى التدبر في القرآن الكريم والاهتداء بهديه طلبا للآخرة.[49]

قال النورسي: " **لما كانت قراءة كل حرف من القرآن الكريم فيها عشر حسنات أو مائة حسنة أو ألفا من ثمرات الآخرة أو ألوفا منها، فلا يعد إذن إيضاح سعيد القديم لنكات دقيقة تخص كلمات القرآن الكريم إسرافا في الكلام**"[50]

وقفة مع النورسي في مسألة منزلة القرآن

تعد مشكلة إبعاد القرآن الكريم عن الصدارة في التأسيس للمعارف الإسلامية (فقها وتصوفا وعقيدة) من أبرز القضايا التي شغلت المجددين في التاريخ الإسلامي المعاصر.

49 /رسالة الإنسان في الإسلام/جيدل عمار 3
50 /إشارات الإعجاز 19

فقد كان بالإمكان إندراس المحتوى القرآني بواسطة الخبرات الثقافية والتربوية الإسلامية من خلال تغليب ذلك المنتج في التأسيس للنظرة الإسلامية في الحياة والحضارة على نصوص الوحي الإلهي، فكاد أن يغيّب المحتوى القرآني لولا أن قيّض الله سبحانه وتعالى تكرما منه رجالا حاولوا إعادة الاعتبار للقرآن الكريم من خلال إزالة الحجب الكثيفة التي وضعها التعصّب والتقليد دون القرآن الكريم، فظهرت من جرّاء ذلك محاولات عديدة لبعث القراءة الهدائية للقرآن الكريم، ولكنها للأسف وقعت تحت طائلة ما خيف منه اندراس القرآن الكريم.

ظهرت في العصر الحديث والمعاصر كثير من المحاولات على أيدي عدد لا يستهان به من العلماء الأعلام، يرجعها بعضهم إلى محاولات متقدمة، فقد قيل بأن أول ظهور كان بقيادة الشيخ ابن تيمية ثم تلميذه الوفي ابن القيم.

أما أولى المحاولات في العصر الحديث فكانت بقيادة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، ثم بدأت التجارب تترى ،فظهرت محاولات السنوسي ومحمد بن عبد الوهاب محمد الطاهر بن عاشور[51] عبد الحميد بن باديس[52] ومحمد إقبال ومحمد بن زاهد الكوثري ومصطفى صبري وحسن البنا وسعيد حوى.. [53] وسائر المصلحين.

---

51 /أنظر أليس الصبح بقريب/ محمد الطاهر بن عاشور(من أحسن ما كتب في نقد العلوم الإسلامية من النواحي المتعلقة بموضوعات العلوم أو مناهجها.

52 /أنظر كتابه العقائد الإسلامية/ابن باديس.قدمه كبديل عن المسالك الكلامية مع استصحاب كثير من المنتج الكلامي السابق في صياغة المباحث أو ترتيبها وهو بهذا ممن يرفضون البداية الصفرية في التأسيس المعرفي بل وحتى الموقف الاجتماعي.

53 /أنظر جولات في الفقهين الكبير والأكبر/سعيد حوى، يعد من أروع الاتجاهات الداعية إلى الاستثمار الأمثل لمنتجاتنا المعرفية في شكلها الفقهي والعقدي والتربوي بل وحتى المنطقي و...

ويؤكد تحليلنا ما ذكره العلامة المجدد عبد الحميد بن باديس في ثنايا مقاله الموسوم بعنوان " **بما تنهض الأمة نهضة دينية** "

قال رحمه الله: "والقرآن في غير موضع منه يدعو إلى العقد الحق المبني على العلم واليقين، المبني على المحسوس في باب المحسوس، وعلى المعقول في باب المعقول " **ولا تقف ما ليس لك به علم" "وإن الظن لا يغني من الحق شيئا"** وهكذا ينهى عن الاكتفاء بالظن إلا حيث ى سبيل إلى غيره.

ثم يضيف قائلا : "الأعمال، وللإنسان أعمال، وهي مبنية على فكر وغرائز وعقائد،فإذا كانت هذه مستقيمة كانت مستقيمة، وإذا كانت معوجة كانت أعماله مثلها، ولكن القرآن لم يكتف في نهضة الأعمال بهذا الاستلزام، بل تتبع أصول الأعمال فوضع لها قوانينها على قواعد الحق والصدق، والرحمة والعدل والإحسان.

و خلص بعد هذا العرض إلى النتيجة الآتية: **فالقرآن - بعد البيان الموجز - بان لكم أنه كفيل بنهضة الإنسان نهضة حقيقية تبلغ إلى بقاع السيادة والكمال، وهنا تم البرهان العلمي، على أنه لا نهضة لنا دينية إلا بالقرآن.**[54]

فقد تحرّك هذا العلم وغيره ممن أشرنا إليهم أعلاه بسبب ما رأوه من ابتعاد عن القرآن في الحياة وشؤونها الثقافية والمدنية، فراموا مشكورين إزالة موانع عودة القرآن إلى الصدارة، وقد بذلوا وسعهم في تحقيق ذلك المقصد، ولكنهم لم يكونوا على مسلك واحد في تصوّر العودة إلى القرآن الكريم ، فوقع بعضهم تحت طائلة الإقصاء فلخّص القرآن في فهمه أو فهم

---

54 /آثار عبد الحميد بن باديس /دار البعث-الجزائر- الطبعة الأولى1408 هـ/1985 م ، الجزء الرابع 49

أعلام معينين، فكانت هذه القراءة سببا في تضييق ما وسّعه الخالق الحكيم، ويعود سبب ذلك إلى مجموعة من الأمراض لعلّ أهمها:

*/ الإقصائية المتشرّعة ، فعوض أن يكون القرآن الكريم سببا في الوحدة جعل سببا في الفرقة بسبب القراءة غير الهدائية وغير المخلصة، إذ قصرت أهدافها على نصرة فلان وإذلال علان عوض أن يكون هدفها إرشاد النفس والآخر بالتربية القرآنية، وما وقعنا في هذا المطب إلا بسبب تغليب الولاء للمذاهب والجماعات على حساب الولاء لله تعالى.

*/ البداية الصفرية بسبب إلغاء كل منتجات الخبرة المعرفية الإسلامية دون تمييز بين صالح وطالح، حتى صارت قاعدة محكّمة، فقيل كل ما جاءنا من منتجات السلف لا يصلح أن يبني قصرا أو يزيّن مصرا، وقيل نرفض البعض دون البعض، فرفض بعضهم كل المنتج السابق فكفر بالمذهبية (رغم كونها ضرورة موضوعية) في الفقه والطريقة في التصوف... فدعا إلى رمي كل ذلك المنتج في البحر[55]، وعمل البعض الآخر على رفض تخصص دون تخصص فدعا إلى نبذ علم الكلام وإلقاء كتبه في سلة المهملات التاريخية، و.. وللأمانة فقد كان غالب تلك التيارات رافضا للبداية الصفرية داعيا إلى استثمار الصالح من خبرات أسلافنا وتجاوز الفاسد منها، ورغم هذا الاتفاق فقد اختلفوا في درجة الاستفادة، وقد وفق كثير منهم في تحقيق المراد، وكان على رأس هؤلاء الموفقين في تحقيق المقصود العلامة **النورسي** القائل: "**فيمكن لمن ضلّ من جهة الفكر والعلم أن يستفيد منها (الرسائل المستفادة من فيض القرآن الكريم) ما ينجيه من مزالق الأفكار الفلسفية، بل يمكن أن يستخرج منها بالتهذيب والتنظيم والإيضاح عقائد إيمانية وعلم كلام جديد في غاية القوة والرصانة لرد ضلالات هذا الزمان، بل يمكن أن يختلط عقله وقلبه، أو التحق قلبه بعقله المتشتت في آفاق**

---

55 / أنظر مواقف الوهابية من علم الكلام والتصوف

الكثرة أن يستنبط منها طريقة كسكة الحديد متينة أمينة يسلك فيها تحت إرشاد القرآن الكريم..." [56]

إننا نقر من البداية أن أصل فكرة رسائل النورسي تعود بالدرجة الأولى والأساسية إلى التجاوب الفاعل مع المعطى الثقافي الجديد، لهذا فهي محققة لمقاصد الأعلام المشار إليهم أعلاه تبعا لا أصالة، إذ كان القصد الأساسي من تأليف هذه الرسائل **المرابطة دون القرآن بالقرآن من أجل الحيلولة دون التشويش على حقائقه الإيمانية التي يريد الغرب وبمساعدة بعض أبناء وطننا (للأسف) من خلالها إبعاد القرآن عن الصدارة في المعرفة الدينية والأخلاقية والاجتماعية والكونية في كثير من صورها، وقد رام بذلك المحافظة على مكاسب الدعوة بتمتين صلة أتباعها بالقرآن بعد أن حيل بينهم وبين سائر دوحات الثقافة الإسلامية بالقوة حينا وبالقانون حينا آخر، ولم يقف عند حد المدافعة بل جاوزها إلى المرافعة عن الحقائق الإيمانية المستفادة من القرآن الكريم بغرض تحرير مساحة إضافية للقرآن الكريم وحقائقه في قلوب المسلمين المعاصرين، ومن ثمّ تهيئة جو طاهر صالح لكسب مجموعات جديدة إلى صفوف الدعوة النورسية.**

وبهذا يختلف النورسي عن المتقدمين، فقد كانت إكراهات الكتابة عنده مباينة لإكراهات أولئك الأعلام على الكتابة، وتقاسمها بعض الهموم والغايات الجزئية التي راموا تحقيقها أصالة وحققت عنده تبعا.

الإكراهات التي أظهرت رسائل النور:

لم يكن الاشتغال برسائل النور فكرة وتحقيقا برنامجا وتنفيذا من قبيل الاستجابة للحاجة التعليمية فحسب، بل كانت بدافع ما فرض من تحديات يمكن أن تبعد القرآن وحقائقه من المجتمع العثماني وبشكل نهائي، فكيف العمل في ظل هذه الظروف؟

---

56 /المثنوي العربي 206

هل نبقى مشتغلين ومنشغلين (بل ومشغّلين) بالمعارك الهامشية - وإن كانت مهمة ومطلوبة ولكنها ليست من الأولويات- مثل المرافعة عن العلوم الشرعية واللغة العربية والمحاكم الشرعية ،أم أننا يجب أن نحمي الأصل الذي تنبعث منه كل تلك النتائج المدافع عنها - اللغة، والمحاكم، والشريعة،... - هكذا يتصوّر النورسي المعركة وطبيعتها، ومن ثم يفرض هذا التحليل اختيار مسلك متجاوب مع التشخيص، فكان الخيار في أسهل ما يكون.

اختار النورسي المرافعة عن الأصل، فكان رحمه الله قائد معركة المرابطة عن القرآن وحقائقه، وقد صرّح بذلك في أكثر من مناسبة، حيث يقول في بعضها: " **ما دامت خدمة الإيمان أسمى من أية خدمة في هذا العصر، وأن النوعية تفضل الكمية، وأن التيارات السياسية المتحولة المتغيرة وأحداثها المؤقتة الزائلة لا أهمية لها أمام خدمات الإيمان الثابتة الدائمة، بل لا ترقى لمقارنتها ولا يمكن أن تكون محورا لها، فينبغي الاطمئنان بما منحنا ربنا سبحانه وتعالى من مرتبة نورانية مفاضة علينا من نور القرآن المبين"**[57]

و يذكر بأسلوب تربوي هادف في سياق عرض ومناقشة أهم القضايا التي يجب أن تصرف لها الطاقات وتتعلق بها الهمم، وذلك في ثنايا بيان بعض وظائف المهدي (المنتظر) فيقول: "في هذا العصر تيارات قوية ومسيطرة إلى درجة تستحوذ على كل شيء، تستولي عليه، وتتملكه، وتسخره لأجلها، فلو أتى الذي ينتظر مجيئه حقا هذا العصر، فإنني أرى أنه يغيّر هدفه، ويجرّد نفسه من الأجواء والأحوال الدائرة في عالم السياسة، **حفاظا على أعماله من أن تغتصبها تلك التيارات.**

---

57 / الملاحق 135

و يضف قائلا: ثم هناك ثلاث مسائل هي: الحياة، والشريعة، والإيمان، **وأن مسألة الإيمان هي أهم هذه المسائل الثلاث وأعظمها في نظر الحقيقة، بيد أن " الحياة "، و" الشريعة " تبدوان في نظر الناس عامة وضمن متطلبات أوضاع العالم أهم تلك المسائل، ولما كان تغيير أوضاع المسائل الثلاث كلها دفعة واحدة في الأرض كافة لا يوافق سنة الله الجارية في البشرية، فإن ذلك الشخص المنتظر (المهدي) لو كان موجودا في الوقت الحاضر لاتخذ أعظم تلك المسائل و أهمها أساسا له دون المسائل الأخرى، وذلك لئلا تفقد خدمة الإيمان نزاهتها وصفاءها لدى الناس عامة، ولكي يتحقق لدى عقول عوام الناس - الذين يمكن أن يستغفلوا ببساطة ـ أن تلك الخدمة ليست أداة لأي مقصد آخر.**[58]

وبعبارة أخرى فهذا العصر حسب رأي النورسي هو **عصر الإلحاد والزندقة والفوضى والإرهاب**، لهذا فأهم ما تبذل له المهج هو **إنقاذ الإيمان** وطريقه **الاعتصام بحقائق القرآن الكريم.**[59]

---

58 / الملاحق 136

59 /أنظر الملاحق 263، 344(بتصرف)

الفصل الثالث

تتفق مؤلفات النورسي في عرض مسألة ماهية الإنسان وصلتها بحريته ووظيفته الاجتماعية، إذ تدور القضية بتفاصيلها حول فكرة مركزية تستهدف تحقيق" **مقاصد إنسانية عليا** على اختلاف مراتبها، ومكملاتها، وفق المصالح التي يفتقر إليها الوجود البشري"[60]، و إنزال المقاصد الإنسانية منزلة المحرّك للأداء الحضاري في تصور النورسي جعله يركّز على الجانب التربوي التذكيري في بيان المسألة وتبليغها ،فعرضت المسألة في أدبياته في قالب عقلي قلبي يقنع العقل ويحرّك الجوان والوجدان في اللحظة نفسها وذلك لما عرف به من منهج تربوي ظاهر، بناه أساسا على بيان المؤاخذات التي يلام عليها الغافلون عن المسالك الإيمانية التي رسمتها وظيفة المسلم المتحرّك بما أملته ماهيته التي حددها خالقه، يؤكد الفكرة في جعله الإنسانية منتهى المطالب الدنيوية المنتظرة من الإيمان،حيث يقول: **"حتى إن ما يطلق عليه "الإنسانية" التي هي قصيدة حكيمة منظومة تعلن إعلانا لطيفا جميع تجليات الأسماء الإلهية القدسية، وهي معجزة قدرة باهرة جامعة كالنواة لأجهزة شجرة دائمة باقية**[61].

و لتحقيق هذه المقاصد الإنسانية في الإنسان حدد له الخالق الماهية والوظيفة وزوّده باستعدادات فطرية ووسائل تكملية وطرق تذكيرية تيسر له تحقيق تلك الغايات السامية، ومن ثمّ كانت الغفلة عن تلك الماهية وما تزال

---

60 /من فلسفة أصول سياسة التشريع الدولي الكفيلة بإقامة التكافل الاجتماعي في الإسلام (5) / فتحي الدريني .بحوث خاصة بأقسام الدراسات العليا في الجامعة الأردنية.

61 /الكلمات/النورسي،ترجمة إحسان قاسم الصالحي 361

وستبقى، - مع عدم النظر إلى ما وهب من استعدادات - سببا في ضياع المقاصد الإنسانية في الفعل البشري.

فالكفر مثلا يقذف الإنسانية من القمة السامية العالية التي جعلها عليها خالقها إلى أدرك الدركات هي أذلّ وأدنى من أي مخلوق ذليل فانه عاجز ضعيف فقير، بل يرديها إلى دركة أتفه الصور القبيحة الزائلة سريعا..[62] **وهكذا تتحول الإنسانية من صورتها الحيّة - خلافة الأرض - التي تفوّقت بها على الأرض والسماوات إلى صورة ميّتة ومميتة.**

من هذا المنطلق سعى النورسي في مجموع مؤلفاته نحو تحقيق هذا المقصد، ولورمت بيان ذلك من خلال المجموع لما جئت بشيء إضافي غير ما حواه بعض تلك المؤلفات من هذه الزاوية، ورغم ذلك فقد أثريت البحث بمجموع ما حوته مؤلفاته".

وقبل سرد التفاصيل، لنا أن نتساءل من الناحية المنهجية، ما المراد بالماهية وما هي الوظيفة المناطة بصاحب هذه الماهية وما صلة كل ذلك بحرية الإنسان ووظيفته الاجتماعية.

أولا: ماهية الإنسان

مصطلح الماهية في أدبيات النورسي قليل الورود، ويريد به في السياقات التي أوردها فيها - وخاصة في مقام الحديث عن الإنسان - حقيقة الشيء، لهذا فماهية الإنسان حقيقته، **وتتجلى تلك الحقيقة في أن منحه الحق سبحانه وتعالى منزلة أكرم من منزلة الملائكة، رافعا إياه إلى مرتبة الخلافة[63]...وعرّفه بهذه الماهية فسماه خليفة ،يشغل رتبة الخلافة في الأرض ويحمل مهمة الأمانة الكبرى[64].**

---

62 /المرجع الاسبق361

63 /المرجع السابق 94،64

64 /المرجع السابق81

ويحسن بنا قبل الانتقال إلى حقيقة تلك الماهية أن نتحدّث عن الماهية من حيث هي عند النورسي، يذكر في خلاصة اللمعة الثالثة أن "الإنسان بما أودع الله فيه من ماهية جامعة يرتبط مع أغلب الموجودات بأواصر ووشائج شتى، ففي تلك الماهية الاستعداد غير المحدود للمحبة ما يجعله يكنّ حبا عميقا تجاه الموجودات عامة، فيحب الدنيا العظيمة كما يحب بيته، ويحب الجنة الخالدة كما يحب حديقته"(65)، ويؤكد هذا المعنى في اللمعة الأولى حيث يقول: "الإنسان بما يحمل من ماهية جامعة يتألم من الحمى البسيطة كما يتألم من زلزلة الأرض وهزاتها ويتألم من زلزال الكون العظيم عند قيام الساعة.. وما دام الأمر هكذا، فلا معبود له ولا رب له ولا مولى ولا منجا ولا ملجأ إلا من بين يديه مقاليد السماوات والأرض وزمام الذرات والمجرات.. فلا بد أن هذا الإنسان بحاجة ماسة دائما إلى التوجه إلى بارئه والتضرع إليه" (66)

وقد حددت تلك الماهية بالخطاب الإلهي **"وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة "**(البقرة 30)، فقد صرح في الآية بمسألة خلافة البشر ولوّح بها إلى مظهرية هذا **النوع للخلافة الكبرى في الأرض لمح بهذه احتجاجا عليها إلى أن الإنسان هو النسخة الجامعة والمظهر الأتم لكل التجليات لتنوع استعداداته وتكثر طرف استفاداته وعلمه فيحيط بالكائنات بحواسه الخمس الظاهرة والباطنة لا سيما بوجدانه الذي لا قعر له"**(67)

وبدرجة حفاظ الإنسان على ماهية أو غفلته عنها تكون قيمته،" **إن قيمة الإنسان بنسبة ماهيته.. وماهيته بدرجة همته.. وهمته بمقدار أهمية المقصد الذي يشتغل به.**(68)

---

65 /اللمعات 21-22
66 /اللمعات 9
67 /إشارات الإعجاز 240
68 / إشارات الإعجاز 82

لهذا فالبشر رغم خلقهم على ماهية معلومة ودور محدد في الحياة إلا أنهم ينحرفون عن تلك الماهية بفعل التربية أو الوضع الاجتماعي، وهذا ما نعمل على بيانه حين الحديث عن الصلة بين الماهية والحرية من جهة وصلتهما بالوظيفة الاجتماعية من جهة أخرى.

والإنسان بتلك الماهية وهب مفتاح العالم في يده ونفسه، فالكائنات مع أنها مفتحة الأبواب منغلقة، فالحق سبحانه أودع من جهة الأمانة في الإنسان مفتاحا يفتح به أبواب العالم، وطلسما يفتح به كنز خلاّق الكون.[69]

ولكنه يحافظ على تلك الماهية ويترقى من حضيض الحيوانية العاجزة الفقيرة الذليلة إلى أوج **الخلافة بقوة ضعفه، وقدرة عجزه، و سوق فقره، وشوق فاقته، وشوكة عبوديته، وشعلة قلبه وحشمة إيمان عقله، ثم أنظر كيف صارت أسباب سقوطه من العجز والفقر والعقل أسباب صعوده بسبب تنورها بنور هذا الشخص النوراني"[70] إنسان الماهية الإنسان الخليفة.**

فقد خلق الإنسان **ليكون فاتحا وكاشفا، وبرهانا نيّرا، ودليلا مبصّرا، ومعكسا نورانيا، وقمرا مستنيرا للقدير الأزلي، ومرآة شفافة لتجلي الجمال الأزلي، وقد انجلت وتصيقلت بحمل الأمانة التي تدهشّت من حملها السماوات والأرض والجبال، إذ من مضامين تلك الأمانة صيرورة الإنسان واحدا قياسيا لفهم الصفات المحيطة.**[71]

وبيّن أن الحديث في هذا السياق عن مطلق الإنسان في أصل خلقه، قال تعالى: **"ولقد كرّمنا بني آدم"**، فهي ماهية لجميع أصل بني آدم عندما أعدّهم خالقهم لعمارة الأرض والسير فيها باسمه والعمل بأمره، لهذا فهي بمثابة منبه أساسي لما من شأنه أن يؤسس للتقارب العملي بين بني آدم، بل

---

69 /المثنوي العربي 227-228…229

70 /المثنوي العربي 58

71 /المثنوي العربي 303

ويدعوهم إلى المطالبة بالمساواة وتجسيدها العملي بالحجة حينا والتذكير في كثير من الأحيان، وقد رام بذلك التحقيق النظري والعملي للمساواة بما يأتي:

1/ التنبيه إلى أصل المادة التي خلقوا منها، فقد خلقهم البارئ المصوّر من مادة واحدة، وما التعبير عن مختلف المواد التي خلقها منها إلا تعبيرا عن المراحل التي مر بها خلق الإنسان.

2/ أصل بني الإنسان يرجع إلى أب واحد وأم واحدة، وهو بمثابة التنبيه العملي إلى ضرورة تجاوز التكبّر والتعجرف بوصفها أمراضا تصيب الإنسان حين الغفلة عن الأخوة الإنسانية المحددة بالأبوة الواحدة.

3/ نبّههم الخالق في القرآن الكريم إلى أنهم تناسلوا بطريقة واحدة: "**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا و قبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم**"(الحجرات 13)، لهذا فسبب التكبر ليس إلا من قبيل الغفلة عن هذه الحقائق التي يريد الخالق تجسيدها وتركيزها في الفطر البشرية بأسلوب تذكيري.

وهكذا ورد الإعلان الإلهي خلقتم لتعارفوا فتعاونوا فتحابوا، لا لتناكروا فتعاندوا فتتعادوا، إذا كما أن هناك روابط تربط الجندي روابط تربط الجندي بفصيلته وفوجه ولائه وفرقته في الجيش، وله واجب ووظيفة في كل منها، كذلك كل إنسان في المجتمع له روابط متسلسلة ووظائف مترابطة، فلو اختلطت هذه الروابط والوظائف ولم تع، وتحدد لما كان هناك تعاون ولا تعارف.. ينتعش هذا الشعور الإيجابي بنمو الشفقة على بني الجنس التي تدفع إلى التعاون والتعارف.[72]

---

72 /صيقل الإسلام 334-335 (بتصرف)

4/ مصيرهم واحد، وما دام مصيركم واحدا و هو السير نحو الموت، فلما التكبر والأنانية والغرور، والتميّز عن سائر الناس، إنها بسبب الغفلة عن الحقائق التي يريد القرآن ترسيخها في قلوب البشر وعقولهم.

بيّن أن " قيمة الإنسان المؤمن قيمة ما فيه من الصنعة العلية، والصبغة الغالية ونقوش جلوات الأسماء"[73]، فهو رفيع القيمة بالنسبة لسائر المخلوقات، مكرّم نفيس غير ذليل في صورته وحركته، مفضّل بالمشاهدة، مهيمن على سائر الكون بما منح من تدبير وتفكير، وقد زوّد بذلك بسبب ما أعد له من وظيفة نوعية متناغمة مع الماهية التي حددت له "إني جاعل في الأرض خليفة"، وظيفة يندرج فيها كل بني آدم، يشهد لهذا ما ورد عن ابن مسعود وابن عباس في بيان الآية السابقة: "يحكمني في الحكم بين خلقي، وذلك هو آدم ومن قام مقامه في طاعة الله والحكم بالعدل بين الخليقة"، ويعضده ما ورد في الأثر: "من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله في كتاب الله ورسوله"، ويشهد له أيضا أن أمر الملائكة بالجود له، وسخّر له الكون وذلك له، ومتّعه بكرامة ذاتية (جعله مهيئا للتعلم والتعليم والرقي الأخلاقي والفني)، ويؤكد مجموع ما سبق بيانه أن **الإنسان متميّز عن سائر المخلوقات تميّزا ذاتيا (بما استودعه الله فيه) وتميّزا وظيفيا بما كلّفه الله به (عمارة الكون على وفق مراد الله) جعلا منه كائنا مسؤولا.**[74]

قال النورسي: إن الفرد الإنسان جماعة من المكلفين، ولكل فرد من حواسه ظاهرا وباطنا عبادة تخصّه، وضلالة تفسّقه، فكما أن سجدة الرأس لغير الله ضلالة، كذلك سجدة خيال الشعراء بالحيرة المفرطة الوالهة في مدح غير الله...وقس على الخيال إخوانه.[75]

---

73 /المثنوي العربي 378

74 /رسالة الإنسان في الإسلام/جيدل عمار

75 /المثنوي العربي 323

ويوضّح في سياق آخر بعبارات سلسة سهلة ماهية الإنسان الممثلة أساسا في الخلافة التي تعني في أخص معانيها العبودية الكاملة لله تعالى، فيقول: **"اعلم أن الفاطر الحكيم إنما ركّب في وجودك هذه الحواس، والحسيات والجهازات لإحساس أنواع نعمة، ولإذاقة أقسام تجليات أسمائه، فما غايات حياتك، وما حقوقها، إلا إظهارك لآثار تجليات أسمائه، وتشهير غرائبها لدى أنظار المخلوقات.. وما إنسانيتك إلا شعورك بهذه الوظيفة وما اسلاميتك إلا إذعانك بهذه المظهرية".** (76)

آثار فكرة الماهية

الأثر المعرفي	الأثر التربوي
1/اكتشاف المنزلة الحقيقة	1/رفض الإذلال أو الذل
2/التحرر المعرفي من الأساطير	2/نشر التكريم
3/تشجيع الروح النقدية	3/رفض فكرة التمييز بين البشر
4/تدفع إلى التبليغ بعد الاقتناع	4/رفض الاستخفاف بالآخر
5/تشبع الفضول	5/الدفاع عن المستضعفين
	6/التواضع مع الخلق لله عزّ وجلّ

ورغم قيمته الرفيعة التي عرّفنا القرآن بها (**ولقد كرّمنا بني آدم**) (الإسراء 70)، فقد صوّره في شقه الثاني كائنا تافها بالنظر إلى مادة خلقه، وطريقة تخلّقه (التوالد المستمر)، فهو مخلوق من تراب، ثم من سلالة من ماء مهين، وإن طالت به العمر عاد إلى الضعف الذي كان فيه في بداية نشأته ومع ذلك يغلب عليه التكبّر والتعجرف، قال تعالى منبّها ومرشدا **"فلينظر الإنسان مم خلق، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب"** (الطارق 6-7)..

76 /المثنوي العربي 386

إدراك هذه الحقيقة في سياق الإحاطة بوظيفته وماهيته يشعره بحاجة الناس جميعا لله تعالى من خلال حاجته هو نفسه.

وما يحررّه من أسر الدنيا إلا التذكر المستمر لماهيته، وبها يرتفع الإنسان من كونه مخلوقا صغيرا وحيوانا ضعيفا وذا شعور عاجز إلى مقام رفيع ومرتبة عالية، بل إلى أرقى مقام عزيز مكرم على جميع المخلوقات". (77)

وما وقع البشر فيما وقعوا فيه من ويلات ومصائب إلا بسبب غفلة بعضهم وتكبّر وغفلة الآخر بقبول الاستخفاف، وما وقع في ذلك إلا حين نسيا الماهية أولا والنزوع إلى جزئه التافه على حساب جزئه العلوي، وكلتاهما جريمة لا تقل إحداهما شناعة عن الأخرى، من حيث كونهما غفلة عن التكريم الإلهي المجسّد في الماهية المحددة بالخلافة.

ثانيا : الماهية والوجود

يعرض النورسي المسألة في سياق الحديث عن حياة الكافر والملحد من جهة وحياة المسلم من جهة أخرى، يقول النورسي: **"لأن الكفر جريمة كبرى، وجناية لا حدود لها، حيث أنه يهبط بقيمة الكائنات ودرجتها إلى هاوية العبث، يوهم عدم وجود الغاية من إيجادها.. إنه تحقير بيّن للكائنات كلها وإنكار لما يشاهد..)**(78)

يظهر مما سلف أن الكافر لا يتصور ماهية للوجود سواء تعلّق الأمر بالآفاق أو بالأنفس، ولا شك أن هذا الموقف أملته الرغبة في الدنيا والغفلة عن الآخرة، وهكذا الحال بالنسبة لسائر الغافلين عن الله تعالى، يظنون أنهم

---

77 /الكلمات698

78 /الكلمات 64

هم الذين يصنعون ماهياتهم، وبالتالي تكون الماهية بعد الوجود، ولا شك أنّ هذا الرأي مخالف لبدائه العقول وما دل عليه صحيح المنقول الصريح.

يتجلى مما سلف أن الماهية قبل الوجود في الفكر الإسلامي الأصيل يشهد لهذا المعنى أن الله تعالى خاطب الملائكة بماهية الإنسان قبل تحقيق وجوده العملي "**إني جاعل في الأرض خليفة**"، لهذا فالماهية لم يحققها الإنسان بعد الوجود بل حددها له خالقه قبل إيجاده الميداني.

يقول النورسي في تفسير الآية وخاصة في الشق المتعلق بشاهدنا "**(جاعل) على (خالق) إشارة إلى أن مدار الشبهة والاستفسار الجعل والتخصيص لعمارة الأرض لا الخلق والإيجاد، لأن الوجود خير محض والخلق فعله الذاتي لا يسأل عنه**" ،فتساءل الملائكة عن سر التخصيص بعمارة الأرض، مما يدل على أن ماهية الإنسان كانت في العلم الإلهي قبل الوجود الفعلي للإنسان على ظهر الأرض، فهو محدد الماهية سلفا قبل الوجود، وقد صرّح في السياق نفسه بهذه المعاني، وخاصة في قوله: "**(خليفة) إشارة إلى أنه قد وجد قبل تهيئ الأرض لشرائط حياة الإنسان مخلوق مدرك ساعدت شرائط حياته الأدوار الأولية للأرض وهذا هو الأوفق لقضية الحكمة**"[79] فيدل النص بطريقة الإيماء أن الإنسان حددت ماهيته قبل أن تهيأ الأرض له، وهذا مؤكد أن ماهية الإنسان قبل وجوده في المصادر الإسلامية.

يشهد لهذا في أدبيات النورسي قوله مخاطبا نفسه: **فيا نفسي** (لغرض تربوي) **الغافلة، إن كنت تريدين أن تفهمي شيئا من غاية حياتك، وماهية حياتك، وصورة حياتك، وسر حقيقة حياتك، وكمال سعادة حياتك.. فانظري إلى مجمل "غايات حياتك" فإنها تسعة أمور، حدد من خلالها الربط**

---

79 /إشارات الإعجاز 235

بالخـالق الـذي حـدد الماهيـة قبـل الوجـود المعبّـر عنهـا بقولـه"غايـات حياتك". [80]

ومن هنا تتحدد العلاقة بين الماهية والحرية، فما هي الصلة بينهما.

80 /الكلمات 138

الفصل الرابع

حدد الشيخ النورسي ماهية الإنسان في كونه خليفة وفق ما بيّنها الله سبحانه وتعالى في محكم التنزيل، ومن ثمّ فالصلة بين الإنسان وحريّته جلية في إطار هذه الفكرة المركزية.

الإنسان في أدبيات النورسي من حيث صلته بماهيته، إما أن يكون مستحضرا لها وإما أن يكون غافلا عنها، هو في الأولى مجسّدا لحريته وفي الثانية غافلا عنها،مجسّدا لأنانيته وحبّه للتغلّب والأثرة، فكيف ذلك؟

يؤكد هذه المعاني في قوله: وما قيمة الدين عند الإنسان وكيف أنه لولا **الدين الحق (الإسلام) لتحولت الدنيا إلى سجن رهيب**[81]، وهكذا فإن فقد الدين الذي معناه الذهول عن الماهية سيكون سببا في فقد الحرية، فيصبح مكبّلا بهواه سجينا في دنياه وإن كان في بحبوحة من النعيم، لأن من يجعل الحياة الفانية مبتغاه فسيكون في جهنم حقيقة ومعنى[82] من خلال وقوعه أسير النفس والهوى والشيطان.

لهذا فالإنسان الحر في فكر النورسي هو الإنسان الكامل المستحضر الدائم لماهيته، وبالتالي يسوق جميع اللطائف التي خلق مزوّدا بها إلى مقصوده الأساس وهو عبادة الله تعالى، فيسوق القلب كالقائد كل لطيفة منها ويوجهها نحو الحقيقة بطريق عبودية خاص بها. مصداقا لقول المصطفى ρ **"ألا وإنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلّه وإذا فسدت فسد**

---

81 /الكلمات 31
82 /الكلمات 37

الجسد كلّه ألا وهي القلب"[83]، وعند ذلك تسير الكثرة الكاثرة من اللطائف جنودا في ركب عظيم وفي ميدان واسع فسيح بقيادة السلطان (القلب)، كما هو لدى الصحابة الكرام رضوان الله عليهم[84]، وبهذا يتحرر الإنسان من عدّة **معوّقات:**

1/المعوّق الأول: فقد الانسجام مع الكون والحياة.

2/المعوّق الثاني: فقد الانسجام بين الأعضاء.

3/المعوّق الثالث: فقد الانسجام بين بني آدم.

وتحقيقا لهذه المقاصد فإن إنسان القرآن يقصد الحق ويتحراه دوما، وفق ما يحمله من فطرة مكرّمة، وقد يعثر على باطل فيظنه حقا ويحافظ عليه، وقد يقع عليه الضلال من دون اختيار وهو ينقب عن الحقيقة، فيظنه حقا ويصدقه.

ومادامت حقيقة الحياة هكذا (دار فتنة) فقد دعاه خالقه إلى ترك الغرور والأنانية، وطلب منه إعلان العجز والضعف أمام عتبة باب الألوهية، إعلان بلسان الاستمداد، ولا يكون ذلك إلا بالإفصاح عن فقرك وحاجتك بلسان التضرع والدعاء، وأظهر بأنك عبد للّه خالص قائلا "حسبنا الله ونعم الوكيل"، وبهذا ترتفع وترتقي في مدارج العلا[85]، طريق الأنبياء والشهداء الأتقياء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

وإياك أن تسلّم بقول الغافلين لسنا بشيء وما أهميتنا حتى يسخّر لنا هذا الكون من لدن الحكيم العليم عن قصد وعناية وحتى يطلب مني الشكر الكلي،

---

83 /أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الإيمان، وهو جزء من حديث نصه:"الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما المشبّهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى المشبّهات استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه، ألا وإنّ لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله في أرضه محارمه..."

84 /المرجع السابق582

85 /المرجع السابق 370

إنك بحسب وظيفتك ومنزلتك مشاهد فطن، ومتفرج ذكي على الكائنات العظيمة، وذلك اللسان الناطق البليغ باسم هذه الموجودات الحكيمة.[86]

وكثيرا ما يعرض مسألة الصلة بين الماهية والوجود في ثنايا الجواب عن التساؤل الآتي: ما أهمية هذا الإنسان الصغير وما قيمته حتى تنتهي هذه الدنيا العظيمة وتفتح دنيا أخرى لمحاسبته على أعماله؟

فكان جوابه: "لأن هذا الإنسان، هو سيّد الموجودات رغم أنه صغير جدا، لما يملك من فطرة جامعة شاملة... فهو قائد الموجودات والداعي إلى سلطان ألوهية الله، والممثل للعبودية الكلية الشاملة ومظهرها، لذا فإن له أهمية عظمى"[87] ولتيسير تجاوب الماهية مع الوظيفة ملّكه الله سبحانه وتعالى فطرة سامية[88] وهكذا أصبح الإنسان مكرّما بالخلافة والأمانة، وارتقى بذلك إلى مرتبة القائد والشاهد على المخلوقات، فهل يمكن أن يذهب إلى القبر لينام هادئا دون أن ينبّه ليسأل عن كل صغيرة وكبيرة من أعماله، ودون أن يساق إلى المحشر ليحاكم في المحكمة الكبرى؟ كلا ثم كلا.

نعم إن الإنسان الذي أنيط به-من بين جميع المخلوقات ـ مهام عظيمة وزود باستعدادات فطرية كاملة، إن لم يعرف ربه (بالإيمان) بعد أن عرّف سبحانه نفسه إليه بمخلوقاته البديعة المنتظمة.. وإن لم ينل محبته بالتقرب إليه بـ"العبادة" بعد أن تحبب إليه سبحانه بنفسه وعرّفها إليه بما خلق له من الثمار المتنوعة الجميلة الدالة على رحمته الواسعة.. وإن لم يقم بالتوقير والإجلال اللائقين به "بالشكر والحمد" بعد أن أظهر سبحانه محبته له

---

86 /المرجع نفسه

87 /المرجع السابق63

88 /م/س81

ورحمته عليه بنعمه الكثيرة.. نعم، إن لم يعرف هذا الإنسان ربه هكذا، فكيف يترك سدى دون جزاء، ودون أن يعدّ له ذو العزة والجلال دارا للعقاب؟[89]

ولما كانت ماهية الإنسان عالية وفطرته جامعة فهو محتاج بألف حاجة وحاجة إلى ألف اسم واسم من الأسماء الحسنى وإلى كثير جدا من مراتب كل اسم، فالحاجة المضاعفة هي الشوق، والشوق المضاعف هو المحبة المضاعفة، والمحبة المضاعفة هي العشق، فحسب تكمّل روح الإنسان تنكشف مراتب المحبة وفق مراتب الأسماء، محبة جميع الأسماء أيضا تتحول إلى محبة ذاته الجليلة تلك الأسماء عناوين وتجليات ذاته جلّ وعلا.[90]

يشبه الإنسان البذرة فلقد وهبت أجهزة معنوية من لدن القدرة الإلهية وأدرجت فيها خطة دقيقة ومهمة جدا من لدن القدر لتتمكن من العمل داخل التربة، ومن النمو والترعرع والانتقال من ذلك العالم المظلم بلسان الضيق إلى عالم الهواء الطليق والدنيا الفسيحة.. فقد أودعت في ماهيته أجهزة مهمة من لدن القدرة الإلهية، ومنح برامج دقيقة وثمينة من لدن القدر الإلهي، فإذا أخطأ هذا الإنسان التقدير والاختيار، وصرف أجهزته المعنوية تحت قرى الحياة الدنيا وفي عالم الأرض الضيق الحدود، إلى هوى النفس، فسوف يتعفّن ويتفسّخ كتلك البذرة المتعفنة، لأجل لذة جزئية ضمن عمر قصير وفي مكان محصور وفي وضع متأزم مؤلم وستتحمل روحه المسكينة تبعات المسؤولية المعنوية فيرحل من الدنيا خائبا خاسرا.[91]

وجعله مخاطبا كليا له، ومرآة جامعة لأسمائه الحسنى.. فهل يقبل العقل، يعطي للإنسان أجرة دنيوية زهيدة، زهادة شعرة واحدة، مع أنه أناط به

---

89 /م/س 67
90 /م س768
91 /م س362-363

وبحواسه مهاما ووظائف هي بعدد شعرات رأسه؟ فهل يمكن أن يقوم بمثل هذا العمل الذي لا معنى له ولا مغزى خلافا لعدالته الحقة، ومنافاة لحكمته الحقيقية؟ سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا.

فهل يمكن أن يهب سبحانه للإنسان كل هذه الوظائف ثم لا يهب له غاياتها ونتائجها وثمارها وهي السعادة الأبدية؟[92]، إنه ضرب من المحال الذي ليس بعده محال ، لهذا يحدد النورسي في أكثر من موضع الغاية من وجود الإنسان والتي جعلت من حرية الإنسان لحمتها وسداها، بحيث لا يتصور وجود تصرّف سوي من إنسان غير حر، بمعنى لا يمكن تصوّر إنسان مهمل أو غافل عن ماهيته يتصرّف تصرفا سويا، إذ مجمل غايات الحياة المحددة في تسعة أمور دالة بنفسها على الحرية التي يتمتع بها الإنسان الذي أراده الله سبحانه وتعالى أن يكون خليفته (صارفا نفسه لما جعل له "خليفة الله")، ويتجلى هذا الأمر فيما يعرف بتجليات الصلة بين الماهية والحرية.

تجليات الصلة بين الماهية والحرية:

يقوم الحر بمفهوم الشريعة في إطار ماهيته بأعمال تدل بنفسها على غائية الماهية وهدفية السير إلى الله بحيث تصبح الحرية عنصرا عضويا في الماهية نفسها، وبنفس القدر تكون محرّكة للمسار وضامنة لأبعاده الإنسانية، ومجمل تلك التجليات في فكر النورسي تلخّص فيما يأتي:

أولها:

القيام بالشكر الكلي، ووزن النعم المدخرة في خزائن الرحمة الإلهية بموازين الحواس المغروزة في جسمك، ولا يمكن أن يقوم بذلك من كان غافلا عن ماهيته.

---

92 /م س94

ثانيهما:

فتح الكنوز المخفية للأسماء الإلهية الحسنى بمفاتيح الأجهزة المودعة في فطرتك، ومعرفة الله جلّ وعلا بتلك الأسماء الحسنى، ومن تنازل عن حقيقته التي خلقه مولاه عليها لا يمكن أن كذلك.

ثالثها:

إعلان ما ركّبت فيك الأسماء الحسنى من لطائف تجلياتها وبدائع صنعتها، وإظهار تلك اللطائف البديعة أمام أنظار المخلوقات بعلم وشعور، وبجوانب حياتك كافة في معرض الدنيا هذه، وفاقد الحرية لا يمكنه ذلك.

رابعها:

إظهار عبوديتك أمام عظمة ربوبية خالقك، بلسان الحال والمقال، وما فعل ذلك غافل عن ماهيته.

خامسها:

التجمل بمزايا اللطائف الإنسانية التي وهبتها لك تجليات الأسماء، التجمّل بيّن من صيغته أنه فعل إرادي والذي يمكن صدوره من فاقد لحريته غافل عن ماهيته.

سادسها:

شهود مظاهر الحياة لذوي الحياة، شهود علم وبصيرة، وهو كسابقه من حيث صيته لا يمكن تصوّر صدوره من فاقد حريته، المكبّل بهواه وأنانيته.

سابعها:

معرفة الصفات المطلقة للخالق الجليل، وشؤونه الحكيمة، يقصد في هذا المقام المعرفة الوظيفية التي تورّث خشية وخشوعا.

ثامنها:

فهم الأقوال الصادرة من كل موجود في العالم وإدراك كلماته المعنوية فيما يخص وحدانية خالقه وربوبية مبدعه، ولا شك أنّ الغرض منه التحرر من معوّقات الحرية.

تاسعها:

إدراك درجات القدرة الإلهية والثروة الربانية المطلقتين، بموازين العجز والضعف والفقر والحاجة المنطوية في نفسك[93] من أدرك ذلك بقلبه وعقله حرّره مولاه من الهوى والنفس الأمارة بالسوء فضلا عن إبليس وجنوده.

من هذا المنطلق كان الكفر عاملا رئيسا في محو الماهية الإنسانية وتعطيل آثارها المقصودة من قبل الشارع الحكيم، ويقرب من الكفر والإلحاد الأمراض النفسية، إذ بها يعطّل الإنسان المريض المقاصد الإنسانية من التشريع في جميع جوانبه، فيصبح الغرور قاعدة في التعامل، وتفتقد بذلك الآداب والعواطف الإنسانية التي جاء الإسلام من أجل ترسيخها من خلال بيان ماهية الإنسان التي تعتبر الزخم الذي تستمد حركة التغيير منه وقودها وقوتها الدافعة.

لهذا فإن الإنسان إذا آمن بالله وحده وأصبح عبدا له وحده، فاز بموقع مرموق فوق جميع المخلوقات، أما إذا استنكف من العبودية وتجاهلها فسوف يكون عبدا ذليلا أمام المخلوقات العاجزة، وإذا تباهى بقدرته وأنانيته،فسيكون أضعف من النملة والنحلة من جهة الخير والإيجاد،بل أضعف من الذبابة، وسيكون أثقل من الجبل وأضرّ من الطاعون من جهة الشر والتخريب.. وتتمخّض عن ذلك ويلات لا حصر لها فتهان الإنسانية وتبتذل بل وقد تصبح في أدرك الدركات.[94]

---

93 /م س138

94 /الكلمات 360

وهكذا يتجلى أن **الحرية في العبودية لله تعالى وهي المسلك الوحيد الذي يحرر الإنسان من معوّقات فعل الخير الفكري والاجتماعي والتربوي و.. وبالتالي فالحرية في الاستحضار الدائم للماهية، وما فقدت الحرية إلا بسبب التعلّق بالدنيا والغفلة عن الماهية الحقيقة للإنسان، أنظر ذلك في كل ما يحيط بك من تصرفات اجتماعية وفكرية وتربوية وسياسية.**

الحرية والعبودية:

يستغرب بعض الناس اجتماع الحرية والعبودية في رحاب واحد بسبب فهمهم الحرية بمعناها السلبي ،الذي هو يفيد الانعتاق من واحد (عبادة الله) - بغرض جلب لظاهر المنفعة له ولسائر الكون - والوقوع في أسر مجموعة من القوى المتشاكسة التي لا تقوم إلا على نفي الآخر ثم تلقي بصاحبها في غيابات سجون النفس والهوى والشيطان.. فيكثر شرّه ويقل خيره، وتصبح أغلى متعته رؤية الناس يعذّبون أو يتعذّبون.

فأين هذا المسلك ممن باع نفسه لله تعالى، إذ يعيش في حرية تامة من أسر الشهوات وكل ما من شأنه أن ينزل به من أعلى المراتب الإنسانية المبيّنة في ماهية الإنسان إلى أدرك دركات البهيمية، لهذا فإن الإنسان الذي **"الذي ينتسب إلى سلطان الكون برابطة الإيمان ويكون عبدا له تتنزّه شفقته الإيمانية عن التجاوز على حرية الآخرين وحقوقهم، مثلما تترفع عزته عن التنازل بالتذلل للآخرين والانقياد لسيطرتهم وإكراههم... إن خادما مخلصا صادقا مخلصا للسلطان لا يتذلل لتحكّم راع وسيطرته، كما لا يتنازل أن يفرض سيطرته على مسكين ضعيف، فبمقدار قوة الإيمان إذن تتلألأ الحرية وتسطع، فدونكم خير القرون، العصر السعيد، عصر النبوة والصحابة الكرام.. [95]**

---

95 /صيقل الإسلام 394،395

ويقول في موضع آخر: "الحرية بالنسبة للإنسان تولّد العبودية لله سبحانه"، ومن ثمّ كان الفكر الملي (الديني الإسلامي) والد الحرية في فكر الشيخ النورسي.[96]

مدلول الحرية:

يستعمل النورسي تقييدا في استعمال لفظ الحرية، فيقول الحرية الشرعية تمييزا لها عن الحرية غير الشرعية التي مقتضاها خضوع صاحبها لمطالب نفسه من نزوات وغيرها..

الحرية الشرعية وفق اسمها محررة بما جاءت به الشريعة الإسلامية من قيود، وهي تعني التحلي بأسمى ما يليق بالإنسانية من درجات الكمال والتشوق والتطلع، إنها ترشد البشرية إلى سبل التسابق والمنافسة الحقة نحو المعالي والمقاصد السامية، والتي تمزّق أنواع الاستبداد وتشتتها، والتي تهيّج المشاعر الرفيعة لدى الإنسان"[97]، تلك هي الحرية المثمّنة بالعبادة، إنها تقول بمضامينها" لا تحسبنّ ما سوى الله تعالى أعظم منك فترفعه إلى مرتبة العبادة، ولا تحسبن أنك أعظم من شيء من الأشياء بحيث تتكبّر عليه، إذ يتساوى ما سواه في البعد عن المعبودية وفي نسبة المخلوقية"[98].

وكمال تلك الحرية المثمّنة بالعبودية أن لا يتكبر عن الإنسان وأن لا يستهزئ بحرية الآخرين.. تلك هي الحرية الإنسانية كالشمس وهي معشوقة كل روح، وصنو جوهر الإنسانية، وما هي إلا التي تربّعت على قصر سعادة المدنية وتزيّنت بحلل المعرفة وحلي الفضيلة والتربية الإسلامية.[99]

نتائج الحرية الشرعية:

---

96 /صيقل الإسلام 396

97 / صيقل الإسلام 500

98 /اللمعات 175

99 /صيقل الإسلام 392-394 (بتصرف)

تأمر الحرية الشرعية النابعة من العبودية المثمّنة بالإيمان، بأوامر رئيسة لا تنفك عنها في كل الأحوال:

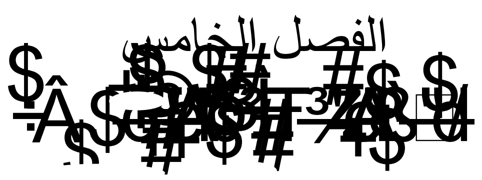
1/الحرية بمفهومها الشرعي تعني أن لا يذلّل المسلم ولا يتذلل، فالمسلم عبد لله ومن كان عبدا لله لا يكون عبدا للعباد[100] مهما كانت مراكزهم ومناصبهم.

2/أن يتحرر المؤمن من أن يجعل غيره عبدا له أو مربوبا له دون الله، إذ من لا يعرف الله حق معرفته يتوهم نوعا من الربوبية لكل شيء في كل حسب نسبته فيسلّطه على نفسه.

لهذا كانت الحرية على قول النورسي **عطية الرحمان وتجل من تجليات الخالق الرحمن الرحيم وهي خاصة من خصائص الإيمان.[101]**

وهكذا كانت الحرية الشرعية محققة لما جعلت له من خلال تصفيتها من الأدران والملوّثات بالإيمان المترجم في مواقف العبودية والتذلل بين يدي الخالق سبحانه وتعالى.

100 /صيقل الإسلام 514
101 /صيقل الإسلام 514



تبيّن ماهية الإنسان أنه موظف وضيف على تعبير النورسي: **إن الإنسان أرسل إلى الدنيا ضيفا وموظفا ووهبت له استعدادات مهمة جدا،وعلى هذا أسندت له وظائف جليلة، وليكد ويسعى لتلك الغايات والوظائف العظيمة فقد رغّب ورهّب لإنجاز عمله، ولهذا فإن وظيفته (الخليفة) ليست الانهماك بالحياة الدنيا والاهتمام بها كالحيوانات، وإنما السعي والدأب لحياة خالدة.**[(102)]

يقول النورسي في التأسيس لهذا المعنى مخاطبا لنفسه من خلال الآخر، وذلك بطريق النصح: **"اعلم أن من وظائف حياة الإنسان شهوده لتحيات ذوي الحياة لواهب الحياة، ثم الشهادة عليها، أي يشاهد عبادة الكل فيشهد عليها ويعلنها كأنه ممثل الكل ولسانهم يخبر الكل بعمل الكل في الإعلان لدى سيدهم".**[(103)]

أسس الوظيفة:

بيّن مما سلف أن ماهية الإنسان هي "الخلافة " وتقتضي هذه المهمة القيام بوظيفة عبادة من استخلفه على الأرض، ومن مقتضياتها عمارة الأرض على وفق مراد الله سبحانه وتعالى، وللقيام بهذه المهام وضعت مجموعة من الضوابط تحكمها في جميع مراحلها.

1/النظرة التوحيدية للكون:

---

102 /الكلمات371،300

103 /المثنوي العربي 347

كلف الله الإنسان بمهمة الاستخلاف في إطار نظرة كونية متكاملة شاملة بالنسبة لموضوع التكليف وتنوّع المكلفين ومستوياتهم، فهي تحكم صلة الإنسان بالله تعالى، وصلة الإنسان بأخيه الإنسان، وصلته بسائر المخلوقات، فمحور تلك النظرة مبدأ التوحيد أساس العقيدة الإسلامية ومحرّك جميع أبعادها المعرفية والسلوكية والاجتماعية والفردية بل وباعثها حين الغفلة بالتذكير.

قال النورسي: **إن سر التساند والترابط، المستتر في الكائنات كلها، المنتشر فيها.. وكذا روح التجاوب والتعاون من كل جانب.. يبيّن :**

أنه ليست إلا قدرة محيطة بالعلم كله، تخلق الذرة وتضعها في موضعها المناسب، فكل حرف وكل سطر من كتاب العالم، حيّ، تسوقه الحاجة، وتعرّف الواحد الآخر، فيلبي النداء أينما انطلق، وبسر التوحيد تتجاوب الآفاق كلها، إذ توجّه القدرة كل حرف حي إلى كل جملة من جمل الكتاب وتبصّرها.(104)

وهكذا يظهر جليا أن التوحيد ينسحب على جميع ميادين الفعل الإنساني ومجالاته المنظورة (عالم الشهادة) وغير المنظورة (عالم الغيب)، لهذا تتناول المسألة جوانب عدة، تتلخّص فيما يأتي:

أ/الجانب الأول: الجانب الإلهي من النظرة التوحيدية

يعتبر هذا الجانب ركن الزاوية في النظرة التوحيدية، بوصفه العامل الفعّال في جوانب الفعل الإنساني، فهو يعني توحيد الخالق في أفعاله وصفاته وذاته، فالله تعالى موصوف بكل صفات الكمال منزّه عن جميع صفات النقصان، وهي المعرفة المركزية التي تنسحب على جميع ميادين الفعل البشري، وهي التي بمقدورها جعل فعله فعلا إنسانيا، "إذ الإنسان بمثل هذه

---

104 /الكلمات841

العبادة والتفكر يصبح إنسانا حقا ويظهر نفسه أنه في "أحسن تقويم" فيصير بيمن الإيمان وبركته لائقا للأمانة الكبرى وخليفة أمينا على الأرض "وهذا هو أساس مجمل الوظائف الإنسانية وسر العبودية.[105]

ويقول النورسي أيضا: **"إن الإيمان يجعل الإنسان إنسانا حقا، بل يجعله سلطانا، لذا كانت وظيفته الأساس "الإيمان بالله تعالى والدعاء له" بينما الكفر يجعل الإنسان حيوانا مفترسا في غاية العجز".**[106]

ب/الجانب الثاني:الجانب الكوني

العالم بجميع مكوناته فعل الله تعالى، لهذا فالعالم واحد من ناحية المبدأ ومادة المنشأ والمصير، فلم يوجد العالم من أصول متعددة ولا يعود إلى أصول متعددة، وجد من أصل واحد وحقيقة واحدة **"قل الله خالق كل شيء"**(الرعد: 14)، ويعود إلى مصير واحد **"ألا إلى الله المصير"** (الشورى:53)[107]

وبهذا يتحرر الإنسان في علاقته مع الكون من الخوف ويحثه على استثمار الكون وفق مبدأ التسخير، ومن ثمّ الانتفاع به ماديا ومعنويا، باستثمار خبراته والتأمل فيه بغرض كشف أسراره، وتذكر الله به لمن رام هذا المقصد ثم التذكير به لما تضمنّه من آيات وبراهين ربانية، أمعن النظر في ملامح الأرض وسمائها، وفي مطرزات تعاريجها، ونقوش انحناءات سطحها، وإلتواءات جسمها، ولاحظ شكلها وألوانها الزاهية المتنوعة بتنوع تربتها، والتي تتسم بالحكمة والإبداع، وتثير الحيرة والإعجاب.. فدونك

---

105 /أنظر المرجع السابق 373، 372

106 /السابق354

107 /نظام الإسلام العقائدي في العصر الحديث/محمد المبارك 25-30،النظرة التوحيدية للعالم /مرتضى مطهري29-30

الأنهار والسواقي والبحار والجداول وسفوح الجبال، **فإنها كلها قد هيئت ومهدت لتكون سكنا للمخلوقات ووسائط نقلهم من مكان إلى آخر"**[108]

وقد استعمل النورسي من خلال النظرة التوحيدية للكون بعض أجزائه للاستدلال بها على خالقه، منها قوله: **"إن الأرض التي هي بمثابة قلب الكون، قد أصبحت مشهرا لعجائب مصنوعات الله البديعة، ومحشرا لغرائب مخلوقاته الجميلة، وممرا لقافلة موجوداته الوفيرة، ومسجدا لعباده المتراصين صفوفا عليها، ونقرا لأداء عباداتهم.. هذه الأرض تظهر من شعاع التوحيد ما يملأ الكون نورا وضياء"**[109]

وورد عنه أيضا: **"إن التساند، والتعاون، والتجاوب، والتعانق، والتسخير، والانتظام الجاري في هذا الكون يشهد شهادة قاطعة أن مدبرا واحدا يديره، ومربيا واحدا يسوق جميع الكون بما فيه"**[110]

ويبيّن هذه المعاني في سياق حديثه عن ثمار التوحيد فيقول مؤسسا لهذه الأسرار: إن الكون بسر التوحيد ،هو بمثابة ملك مجسم عظيم جدا بحيث له مئات الألوف من الرؤوس، بل بعدد أنواع الموجودات في كل رأس مئات الألوف من الأفواه، بل بعدد أفراد ذلك النوع، وفي كل فم مئات من الألسنة بل بعدد أجهزة ذلك الفرد وعدد أجزائه وأعضائه وحجيراته، **فهذا الكون الهائل والمخلوق العجيب، هذا الملك العظيم يقدّس الصانع الجليل بهذه الألسنة التي لا تعد ولا تحصى ويسبّحه جل وعلا، فهو إذا في مقام رفيع يتسربل عبودية عظيمة شبيهة بعبودية اسرافيل عليه السلام**[111]، وبينما هو كذلك على هيئة عجيبة بسر التوحيد، فإنه بالشرك يحوّل إلى أشتات

108 /الكلمات 811
109 /المرجع السابق812
110 /المرجع نفسه 338
111 /الشعاعات 15

واهية جامدة، لا روح لها ولا حياة، ولا بقاء لها ولا وظيفة، هالكة لا معنى لها، تتدحرج في خضم ظلمات العدم وأهوال الأحداث التافهة والانقلابات، فالشرك يجعل هذا المصنع العظيم الذي يدر النفع الكثير، شيئا لا فائدة له ولا يكسب منه شيء، معطلا عن كل عمل، مختلطا ومتشابكا تلعب المصادفات العشوائية والطبيعة الصماء والقوى العمياء، ومأتما حزينا لذوي الشعور كافة، ومذبحة وسلخة أليمة لذوي الحياة كافة"[112]

إن للتوحيد في جانبه الكوني أثرا عظيما في سير الكون أولا وفي تصور الإنسان المؤمن للكون ثانيا وتعامله مع ذل الكون وفق ذلك التصور ثالثا، لهذا فالتوحيد ليس معزولا عن صلة الإنسان بالكون سواء من جهة القراءة أو من جهة التفاعل المؤسس على الاستثمار المبني على التسخير الإلهي له لصالح الإنسان.

الجانب الثالث: الجانب البشري من النظرة التوحيدية

يحوي التوحيد في جانبه البشري عنصرين رئيسين:

1/ توحيد يؤصل فكرة وحدة بني البشر من حيث مادة خلقهم وعناصر بقائهم ووحدة مصيرهم، فالإنسان فعل من أفعال الله، خلق جميع أفراده من مادة واحدة (تراب) جعل تخلقهم على نسق واحد (التناسل)، ويصيرون إلى مصير واحد (الموت)، وهو ما يجعل الإنسان أو النوع الإنساني مصون الكرامة محفوظ الجانب في كل أحواله بصرف النظر عن لون البشرة أو العرق أو الجنس أو الدين..، فالنظرة مبنية إلى قيمته بالنظر إلى جوهر ماهيته.[113]

عبّر عن هذا المعنى النورسي بقوله: "**أيها الإنسان إن من دساتير القرآن الكريم وأحكامه الثابتة** (وهذا بفضل التوحيد) **أن لا تحسبن ما سوى**

---

112 /الشعاعات 15

113 /رسالة الإنسان في الإسلام/عمار جيدل 10،الكلمات 81-83

الله تعالى أعظم منك فترفعه إلى مرتبة العبادة، ولا تحسبن أنك أعظم من شيء من الأشياء بحيث تتكبّر عليه، إذ يتساوى ما سواه تعالى في البعد عن المعبودية وفي نسبة المخلوقية "[114]

و سيورّث تمكين التوحيد في جانبه البشري من الابتعاد أو التطعيم من داءين فتاكين، يصوّرهما قول النورسي في بيان ما تأمر به الحرية الشرعية، وقد لخّصها في أمرين أساسيين:

أ/أن لا يذلّل " المسلم " ولا يتذلّل.. من كان عبدا لله لا يكون عبدا للعباد.

ب/أن لا يجعل بعضكم بعضا أربابا من دون الله، إذ من لا يعرف الله حق معرفته يتوهم نوعا من الربوبية لكل شيء، في كل حسب نسبته فيسلّطه على نفسه.[115]

2/ توحيد في العبادة والتوجّه إلى الله سبحانه وتعالى، بوصفه الخالق الرازق، أمدّنا بعناصر الوجود والبقاء ويملك مصيرنا، ولهذا يجب التوجّه إليه وحده بالعبادة والطاعة،فيكون الله قبلة الروح ووجهة الحركة وغايتها، ومن ثم ّنبذ كل مطاع أو جهة أو قبلة أو غاية أخرى.[116]

فالإنسان بعد مجيئه إلى هذا العالم له عبودية من ناحيتين، كلاهما يعبّر عن جانبي العبادة، فالناحية الأولى تشمل التصديق بالطاعة لسلطان الربوبية الظاهر في الكون والنظر إلى كماله سبحانه وتعالى وحسنه بإعجاب وتعظيم، ثم استنباط العبرة والدروس من بدائع نقوش أسمائه الحسنى القدسية وإعلانها ونشرها وإشاعتها، والتفكر بإعجاب عند مطالعة أوراق الأرض والسماء وصحائف الموجودات التي هي بمثابة كتابات قلم القدرة، أما الناحية الثانية

---

114 /اللمعات 175

115 /صيقل الإسلام 514

116 /الكلمات الإحالة السابقة

فهي مقام الحضور والخطاب الذي ينفذ من الأثر إلى المؤثر، فيرى أن صانعا جليلا يريد تعريف نفسه إليه بمعجزات صنعته، فيقابله هو بالإيمان والمعرفة.[117]

إن التوجّه في التوحيد العملي إلى الله تعالى يورث لدى العباد الثبات في صلتهم بالمعبود أولا، ثم في صلتهم بسائر المخلوقات ثانيا، نظرا لثبات المتوجّه إليه (كمال مطلق)، وثبات القواعد العامة في التعامل مع الإنسان والكون والله سبحانه وتعالى، بخلاف التوجه إلى غير الله الذي يورّث التغير المعرفي والنفسي والسلوكي للخاضع للتغير الحاصل على المخضوع له، إذ يرجع سبب الخضوع إما لقوة أو سلطان أو جاه أو مال أو.. وهذه الأمور دول بين الناس فإما أن يفارقها المخضع (بضم الميم) لغيره بها أو تفارقه، وهو حين يفارقها أو تفارقه يفرض تغيّرا على مستوى الخاضعين وفي ذلك شناعة ما بعدها شناعة، تؤثر سلبا على الخاضع بالتغير المستمر وفق ما يتطلّبه المخضع الجديد.

وهكذا يتبيّن ويتأكد أثر التوحيد في النفوس البشرية وتعاملها مع الكون " نعم، إن أسند أمر الخلق إلى " الفرد الواحد الأحد " يخلق كل شيء من العدم في لمح البصر وبكل سهولة ويسر، وبقدرته المطلقة العظيمة بآثارها المشهودة، ويقدّر لكل شيء بعلمه المحيط المطلق ما يشبه قوالب معنوية وتصاميم غيبية.. فكل شيء عنده بمقدار.. إن إسناد الخلق جميعا إلى الفرد الواحد الأحد يجعل خلق جميع الأشياء سهلا كالشيء الواحد، وبعكسه إذا أسند إلى الطبيعة والأسباب فخلق الشيء الواحد يكون صعبا ممتنعا كخلق جميع الأشياء..[118] ومن ثمّ كان في الوحدة والتوحيد سهولة مطلقة وكان في

---

117 /الكلمات 372

118 /اللمعات 455،547

الشرك والضلالة صعوبات ومشكلات لا حصر لها[119]، على الإنسان والكون من جهة وتعامل الإنسان مع الكون من جهة أخرى، لهذا فالشرك يعني التشتت على مستوى القوى الداخلية في الإنسان ثم على مستوى علاقته بعالم الأشياء، فالموحّد حرر نفسه بالتوحيد من الفوضى بالنظام والانتظام ومن عبثية السير في الدنيا إلى مقصدية الحياة ووظيفيتها، إن البون شاسع بين التوحيد والشرك، واسع بقدر المسافة الفرق بين الفوضى والنظام.

وقد رام النورسي تكريس هذه الحقيقة في مجموع مؤلفاته، فقد ورد عنه في مقام التوجيه إلى هذه المبادئ السامية قوله: **اعلم أن الفرق بين طريق التوحيد وطريق الإلحاد، كالفرق بين الجنة والجحيم، والواجب والمحال، فإن شئت فانظر إلى الموازنة بين الطريقين:**

أما التوحيد، فيسند الكثير غير المحدود إلى الواحد فيتخفف الكلفة والمصرف بدرجة تساوي الشموس والذرات والقليل والكثير الغير المتناهي بالنسبة إلى قدرته.

وكذا يظهر التوحيد في كل شيء غايات كثيرة مهمة من جهة نظره إلى صانعه، ومن تلك الغايات إظهار الشيء لأسماء خالقه، كأن الشيء كلمة واحدة جامعة لرموز السماء فتدل عليها...

أما الإلحاد، فيسند الواحد إلى الكثير الغير المحدود، أي يسند كل شيء إلى العناصر العاجزة الجامدة، وإلى القوى والنواميس الصم العمي، فتتضاعف الكلفة بدرجة تساوي كلفة الفرد كلفة عام النوع، بل تساوي كلفة شيء واحد كلفة كل الأشياء.[120]

ثم يتساءل في سياق تأكيد الفكرة المركزية (التوحيد أثره في النظام والانتظام): "**أنظر إلى لسانك ووظائفه، ومن بعض وظائفه، وزنه لجميع**

---

119 /المرجع السابق 295

120 /المثنوي العربي 466-467(بتصرف)

مدخرات خزائن الرحمة.. فيا أيها الإنسان الحامل للأمانة الكبرى، كيف لا تطيع قانونا أحاط بكل شيء من العرش إلى الفرش، وكيف تتجاسر على العصيان في مقابلة مسخّر الشمس والقمر ومستخدم النجم والذر"[121]

و بهذا يتجلى أن الماهية المحددة للحرية الشرعية أثر عظيم في القيام بمجمل الوظائف الحياتية والوظيفة الاجتماعية على وجه الخصوص، بوصفها من أهم المظاهر المشعرة بالالتزام بالماهية (خليفة الله المكلّف بعمارة الكون على وفق مراد مستخلفه فيها)

الوظيفة الاجتماعية

يتصور الإنسان وظيفته الاجتماعية المنتظرة منه بناء على تصوره لماهيته، فالمتحرر من كل قيد يضع برنامجا اجتماعيا متناغما مع ذلك التصور ومحققا لأهدافه، ومن تصوّر ماهيته من خلال مركزية المجتمع (من الناحية النظرية على الأقل) تلبّست وظيفته الاجتماعية بذلك التصور، وهكذا دواليك.. مما يؤكّد أن للوظيفة الاجتماعية أو الموقف الاجتماعي صلة وثيقة بالماهية في إطار التصور المختار.

لهذا كانت الوظيفة الاجتماعية للمسلم واضحة بوضوح ماهيته المبيّنة بنصوص الشريعة المحددة بها **"إني جاعل في الأرض خليفة"** (البقرة: 30)، وهي بدورها ضابطة حريته ومحررتها مما يعيقها أو يمنع انطلاقتها في العالم الرحب، عالم الإنسان والكون بجميع جزئياته.

تجليات الصلة بين الوظيفة الاجتماعية والماهية:

يتجلى بصفة عامة كما قال النورسي التعارف على علاقاتكم الاجتماعية.. **لأن المجتمع الإسلامي الشبيه بالجيش العظيم، قسّم إلى قبائل وطوائف، مع**

---

121 /المرجع السابق 467-466(بتصرف)(تصرف بهذا الترتيب)

أن لهم ألف جهة وجهة من جهات الوحدة، إذ خالقهم واحد ورازقهم واحد، ورسولهم واحد، وقبلتهم واحدة، وكتابهم واحد، ووطنهم واحد، ... وهكذا واحد، واحد،... إلى ألوف من جهات الوحدة التي تقتضي الأخوة والمحبة والوحدة، بمعنى أن الانقسام إلى طوائف وقبائل ما هو إلا للتعارف والتعاون لا للتناكر والتخاصم"[122]، أما تجلياته التفصيلية فتظهر في كل الأفعال ذات المضمون الاجتماعي.

*/علاقات الجوار

*/علاقات التعاون والتآزر

*/العلاقات الأسرية

*/الموقف الاجتماعي العام...

مرتكزات الوظيفة الاجتماعية :

تتركز الوظيفة الاجتماعية على استكشاف عناصر رئيسة تيسر الاستعداد الدائم للقيام بالوظيفة الحضارية المنتظرة والمنشودة، يتجلى هذا الأمر في:

1/معرفة الضعف البشري :

إذ باكتشاف ضعفه وقلة حيلته وأنانيته وأثرته لنفسه المنقطعة النظير (كانت وما زالت سببا في كثيرا من الصراعات) يكتشف الإنسان حاجته إلى غيره، فهذه الأمراض المعرفية والمعنوية كالأنانية ليس بمستطاعه التنصل منها لأنها تجري منه مجرى الدم، ولا سبيل لترشيدها بغير الإيمان، لأن الإيمان لا يلغيها بل يجعل لها بعدا ووظيفة اجتماعية ظاهرة، فيفعل الخير (فعل اجتماعي) بغرض فردي يحصّل بموجبه الثواب عند الله تعالى،

---

122 /المكتوبات 414-415

مصداقا للحديث المتفق عليه "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه".

إن المستند إلى أنانيته وغروره المتخذ الحياة الدنيا غاية آماله، سوف يغرق في دائرة ضيّقة ويذهب سعيه إدراج الرياح، وستشهد عليه يوم الحشر جميع الأجهزة والجوارح واللطائف التي أودعت فيه شاكية ضده، ساخطة ثائرة عليه،أما إذا أدرك أنه ضيف عزيز، وتحرك ضمن دائرة مرضاة من استخلفه فسوف يكون نشاطه وعمله ضمن دائرة فسيحة رحبة جدا تمتد إلى الحياة الأبدية الخالدة، وسيعيش سالما آمنا مطمئنا، ويتنفس تنفس الصعداء ويستروح، وبإمكانه الصعود والرقي إلى أعلى عليين، وستشهد له في الآخرة ما منحه الله من الأجهزة والجوارح واللطائف.(123)

و قد رام النورسي توضيح الأمر حين الحديث عن قوله تعالى: "**وما الحياة الدنيا إلا لهو ولعب**" (الأنعام: 32)، فقال بأن الحالة الروحية تبيّن من خمسة وجوه منها (محل الشاهد) **إنه تعالى يدفع الإنسان ليستشعر ضعفه وعجزه غير المتناهيين، سواء بمدى ثقل الحياة أو تكاليف العيش أو أمور أخرى، فيولد لديه رغبة جادة في الخلود إلى الراحة وشوقا خالصا للمضي إلى ديار أخرى.**(124)

2/جزئية الهدف وتفاهته:

نعلم أن حركة بناء الحضارة تستمد أساسا من قوة الدفع الداخلي لدى الساعي إلى البناء، فإن كانت قوة الدفع كلية وسامية كانت الحضارة مثلها، وإن كان الهدف تافها فإن جذوة بناء الحضارة تنطفئ بمجرد تحقيق الهدف أو جزء منه، لأن الهدف بمثابة الزخم الذي يستمد منه المشروع فاعليته

---

123 /الكلمات 365

124 / المرجع السابق 224

حركيته وديمومته[125]، إن القيام بوظيفة العمارة وفق أمر الله تستمد قوتها من كلية الهدف وفاعليته في النفس الإنسانية (سنبيّنه لاحقا)، وتحرره من الأهداف الجزئية التافهة المانعة من الانطلاق نحو الرحاب الواسع، لأنها تجعله غارقا في ذاته وأنانيته، لما يحمله من استعداد لا نهاية له للشر و الجحود، فهو قادر على تمرد و طغيان لا نهاية لهما[126]، من هذا المنطلق، **"كان كل من يجعل الحياة الفانية فسيكون في جهنم حقيقة ومعنى، حتى لو كان يتقلب ظاهرا في بحبوحة النعيم، وكان كل متوجه نحو الحياة الباقية الساعي لها بجد وإخلاص فائزا بسعادة الدارين.**[127]

يقول النورسي: **"إن الأضرار الطفيفة المؤقتة الفانية القصيرة بالنسبة للحياة الأخروية إنما كلسع الذباب، بينما الحياة الأخروية هي كلدغ الثعابين"**[128]

وقد كانت حياة النورسي ترجمة عملية للتحكّم في الدنيا ومفاتنها عوض أن يكون مجنونا بها كما هي حالة كثير من الخلق، فقد جاءته راغبة فيه، فطلقها سعيد الجديد طلاقا بائنا لا رجعة فيه، لأنه يملك -على حد قوله - دنيا خاصة- تتهدم بسرعة، لهذا يتساءل، فما فائدة هذه الدنيا الخاصة إذن في عمري القصير جدا؟؟.. فرأى بنور القرآن الكريم أن هذه الدنيا بالنسبة له ولغيره ما هي إلا متجر مؤقت، ودار ضيافة تملأ كل يوم وتخلى، وهي سوق مقامة على الطريق لتجارة الغادين والرائحين، وهي كتاب مفتوح يتجدد للبارئ المصور، فيمحو فيه ما يشاء ويثبته بحكمة، وكل ربيع فيها رسالة مرصّعة مذهبة.. فقد أخطأ المرمى وجانب الصواب من استعمل المحبة في

---

125 /الإسلام يقود الحياة/باقر الصدر، وأنظر نظام الإسلام العقائدي29-31

126 /الكلمات207

127 /الكلمات 37

128 /الملاحق 154

غير محلها، فصرفها إلى الوجه الفاني القبيح ذي الغفلة والضرر حتى حق عليه الحديث الشريف **"حب الدنيا رأس كل خطيئة".**[129]

يتجلى فيما سلف أن لماهية الإنسان صلة وثيقة بوظيفته الاجتماعية، وأن الله حين جعل للإنسان ماهية ووظيفة مرتبطة بها، وضع بين يديه مجموعة من المؤهلات الميسرة لتلك الوظيفة، فما هي مؤهلات القيام بالوظيفة الاجتماعية؟

هذا ما نحاول بيانه في الفصل اللاحق.

---

129 /أخرجه البيهقي بإسناد حسن بإسناده إلى الحسن البصري رفعه مرسلا
أنظر سرة ذاتية /النورسي 157-158

الفصل السادس

لا ينحصر التنبيه الإسلامي للإنسان حين القيام بمهام التكليف على جانب الضعف فقط، بل يشير أيضا إلى عناصر قابلة للنماء إذا استحضرها كانت مؤهلات قوية للقيام بأعباء المهمة، وفي ذلك يقول النورسي: **أودعت في ماهية الإنسان أجهزة مهمة من لدن القدرة الإلهية، ومنح برامج دقيقة وثمينة من لدن القدر الإلهي، وإذا ربى بذرة استعداده بماء الإسلام، وغذّاها بضياء الإيمان تحت تراب العبودية موجها أجهزتها المعنوية نحو غاياتها الحقيقية بامتثال الأوامر القرآنية، فلا بد أن يستنشق عن أوراق وبراعم وأغصان تمتد فروعها وتتفتّح فروعها وتتفتّح أزاهيرها في عالم البرزخ وتولّد في عالم الآخرة وفي الجنة نعما وكمالات لا حد لها،فيصبح الإنسان بذرة قيمة حاوية على أجهزة جامعة لحقيقة دائمة وشجرة باقية، ويغدو آلة نفيسة ذات رونق وجمال، وثمرة مباركة لشجرة الكون"**[130]

و تظهر مؤهلات الإنسان في جانبيها الذاتي والمعرفي، لهذا سنقسمها بما ينسجم وهذا الاختيار.

المؤهلات الداخلية:

ليس المقصود أنها من بنيات جهده وحيلته نبل المراد تنبيهه إلى ما جعله الخالق مركوزا فيه فضلا وتكرما من الله سبحانه وتعالى، فقد زوّده الخالق

---

130 /الكلمات 362-363

بعناصر قوة مركوزة في ذاته ليس باستطاعته الغفلة عنها إذا أراد استغلال كل طاقاته فيما جعلت لها، وتنقسم تلك المؤهلات إلى قسمين: روحية وبدنية.

ا/المؤهلات الروحية:

منح الله الإنسان مؤهلات روحية عالية يصلح بموجبها لاستقبال الوحي، "إذ يمثل الإنسان أعظم مقصد من المقاصد الإلهية في الكون، وهو المؤهل لأدراك الخطاب الرباني، وقد اختاره من بين المخلوقات"[(131)]، وما ذلك التأهيل إلا بسبب ما استودع روحه من قابليات للتلقي عن الله بواسطة رسله وكتبه، لهذا يعتبر الجانب الروحي أساسيا في استقطاب والتقاط أوامر الله ونواهيه والتفاعل معها تفاعلا إيجابيا، يقيم أركانها في النفس البشرية أولا، والمحافظة عليها بالإخلاص والصدق في النفس والأمة ثانيا، وهو ما يساهم في ديمومة الفكرة وانتشارها، لأن المجتمع هو الوسط الحيوي للفعل البشري.

ب/المؤهلات البدنية:

زوّد الإنسان بقدرات بدنية تمكّنه من القيام بما طلب منه، فإمكاناته البدنية تيسّر له القيام بما كلّف به، بل هي منسجمة كل الانسجام مع تلك الوظائف ووفق قدرات كل شخص وقد ورد في الحديث "اعملوا فكل ميسر لما خلق له، "**فالإنسان وهب أجهزة معنوية ولطائف إنسانية والتي إذا قيست كل واحدة منها بما عند الحيوان لظهرت أنها أكثر انبساطا وأكثر مدى بمائة مرة، فمثلا: أين عين الإنسان التي تميّز جميع مراتب الجمال؟ وأين حاسته الذوقية التي تميّ. مختلف المطعومات بلذائذها الخاصة؟ وأين عقله.. وأين**

---

131 /اللمعات 555

قلبه.. فقد خلق الإنسان في أحسن تقويم وفق ما يؤهله للقيام بوظيفة عبادة الله.[132]

إن الصلة بين المؤهلين تشابكية، وإن كانت الأسبقية للمؤهل الأول من حيث الفاعلية بوصفه قوة دفع البدن وتحريكه تحقيقا لمراد الله.

2/ المؤهلات المعرفية الاستكشافية

يراد بها تلك المعارف التي يجب أن يكتشفها عمليا ويسعى إلى استثمارها بوصفها من العناصر التي خلق مزودا بها في أصل خلقته ولكنها من العناصر التي قد تغيّبها التربية غير الراشدة أو بالوسائل القهرية المسلّطة بالقانون حينا والكذب والتعسّف أحيانا كثيرة، ولعل من أهم ما يجب لفت الانتباه إليه، هي عناصر القوة في المعرفة بالماهية.

أ/ عناصر القوة في المعرفة بالماهية

تتميّز ماهية الإنسان بعناصر قوة تجعلها تمتد أفقيا وعموديا عقليا وجوانيا،تنموا نموا سننيا (عاديا)،ولا تفقد (مؤقتا) موقعا محررا في الأنفس والآفاق إلا إذا حيل دون بقائها بوسائل غير موضوعية وغير أخلاقية وبالتالي غير مشروعة وفق التصور البشري، كالتشويه والكذب والدجل بأساليبه المتنوعة.[133]

وتتلخّص عناصر قوتها في جوانب عدّة تستند جميعها إلى الحق في الحياة الاجتماعية بدلا من القوة، وتجعل رضى الله ونيل الفضائل هو الغاية والهدف بدل المنفعة، والتعاون أساسا للحياة بدل الصراع، وجعل من

---

132 /الكلمات396-397

133 /أنظر حقائق الإسلام وأباطيل خصومه/العقاد113،خلافة الإنسان/النجار49،نظام الإسلام العقيدة والعبادة/المبارك56،27
وقولنا بهذه الفكرة ليس على إطلاقه وبالتالي لسنا من المائلين كل الميل للتحليل التآمري للتاريخ ولسنا من المائلين عنه كل الميل.

غاياتها الحد من تجاوز النفس الأمارة بالسوء ودفع الروح نحو معالي الأمور وتطمين مشاعرها السامية لسوق الإنسان نحو الكمال والمثل العليا لجعل الإنسان إنسانا حقا وصدقا(134)، وهو ما يجعلها ضامنة لعناصر وجودها في النفس البشرية وديمومتها فضلا عن انتشارها.

***/جانب الوجود:**

تحمل ماهية الإنسان في فكر النورسي قوة ذاتية تمكّنها من النفس البشرية وتشبع مطالبها الفطرية النفسية منها و العقلية والاجتماعية، بمعنى أنها تستجيب لأساسيات مركوزة في النفس أصالة، لهذا أعتبر الوحي بمثابة مذكر بما هو كائن فيها إما بطريق الوعظ والإرشاد ومخاطبة الوجدان أو بالإقناع العقلي.

"أنظر إلى كمال النعمة في كمال الحكمة، وكمال الحكمة في كمال النظام، وكمال النظام في كمال الميزان، في صنعة الحواس الخمسة الإنسانية، إذ فطرها بوضعية وجهّزها صانعها بجهازات، يحس الإنسان بها ويذوّق صاحبها خصوصيات جميع أنواع الثمرات والأزهار والأصوات والروائح وغيره، وحتى أن في حاسة الذائقة حسيات أنواع الثمرات والأزهار بعدد طعوم جميع أجناس الثمرات وأنواعها وأصنافها.. ومن هذا السر بلغت جامعية فطرة الإنسان إلى درجة صيّرت هذا الإنسان: مظهرا لما لا يحد من أنواع تجليات أسماء فاطره جل شأنه، وذائقا لما لا يعد من ألوان نعمه(135)، فكانت هذه الأمور استعدادات للتسامي وحامية لأصل الفطرة التي استودع فيها خالقها التوحيد وأبعاده الوظيفية، وهي بذلك تصون أصل الفطرة من جانب الوجود أي من جانب الحفاظ على أصل الخلقة في

---

134 /الكلمات 472-473بتصرف

135 /المثنوي العربي 287

صورتها الفطرية وبجميع مكوناتها الأخلاقية والاجتماعية بالإضافة إلى العقدية.

***/جانب البقاء:**

إن رسالة المسلم تتمتع بحجج عقلية ونفسية واجتماعية، تجعل استقرارها في النفس ممكنا بل ومؤكدا بحجج النقل والعقل، لأن رسالة المسلم تبلغ بالإقناع **(قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين"**(البقرة111)، وتتوخى تلك الطريقة في المحاجة وهو ما يدفع المقتنعين بها إلى البحث الاستدلالي المستمر إشباعا لحاجتي العقل والقلب في اللحظة نفسها وفق مسلك القرآن المبيّن في رسائل النور التي قال عنها النورسي: "إن رسائل النور ليست كبقية مصنفات العلماء تسير على وفق خطى العقل وأدلته ونظراتهن ولا تتحرك كما هو الشأن لدى الأولياء المتصوفين بمجرد أذواق القلب وكشوفاته.. **إنما تتحرك بخطى اتحاد العقل والقلب معا وامتزاجهما، وتعاون الروح واللطائف الأخرى، فتحلّق إلى أوج العلا وتصل إلى مراق لا يصل إليها نظر الفلسفة المهاجمة فضلا عن إقدامها وخطواتها، فتبين أنوار الحقائق الإيمانية وتوصلها إلى عيونها المطموسة.."**[136]

***/جانب الانتشار:**

إن فكرة قامت واستمرت بالحجة العقلية المؤيدة للحقائق الواقعية، لا يمكن أن يمنع انتشارها الجهل والقهر.. لأنها تحمل قوة ذاتية في الانتشار، وأكبر شاهد على ما ذهبنا إليه انتشار الإسلام بجهود العلماء مثل انتشاره بجهود غيرهم من التجار والعامة.. وقد كانت رسائل النور أحسن أنموذج معبّر عن القوة الذاتية للقرآن الكريم، بما حواه من قدرة على الانتشار رغم

---

136 /الملاحق 105

الحصار، فقد تجلت المضامين القرآنية في رسائل النور ولهذا كتب لها الانتشار والبقاء والديمومة، فقد كانت تستمد من القرآن الكريم طراوة شبابيته ولياقته وموافقته لكل طبقة[137] فكان خطابها مستمدا من خطاب الله الشامل لجميع الطبقات، ولكل العصور، والأحوال والظروف كافة[138].

لهذا ما نالت رسائل النور ما نالت من عناصر الوجود الحقيقي المشهود به في عالم الشهادة إلا بسبب استمداد عناصر قوتها الداخلية من فيض القرآن الكريم، وما كتب لها البقاء والديمومة إلا بذات السبب، وهو ذاته ما ساهم بسقط وفير في انتشارها في الماضي القريب والحاضر، ولا يتم لها ذلك في قابل الأيام إلا بقدر محافظتها على ارتباطها بالفيض القرآني حين التبليغ العملي المتناغم مع المعطى الواقعي بجميع مكوناته، لأن رسائل النور ما كانت إلا رشحة من رشحات القرآن أملتها القراءة الهدائية للقرآن الكريم في كنف ما أحاط صاحب رسائل النور وتلاميذه من معطيات فكرية وسياسية واجتماعية وتعليمية.. وحضارية محلية وجهوية ودولية.

ب/التركيب العقائدي للماهية و غائية المسير:

غاية الغايات في ماهية الإنسان هي عبادة الله تعالى، بمعنى العمل على تحقيق مراده من خلال السعي إلى مرضاته، وهو هدف دافع نحو البذل المستمر، إذ السير نحوه باستمرار يكسب صاحبه أفاقا جديدة وامتدادات غير منظورة، وزادت جذوته اتقادا وحركته نشاطا وإبداعا،لأن السير في طريق تحقيق الهدف المرسوم يشعر الإنسان بتقصيره دوما، فكلما خطا خطوة ازداد اندفاعا، لا لشيء سوى أن هذا الهدف بعيد المنال مع كمال الرضا.[139]

137 /المنوي العربي 79 (بتصرف)

138 /صيقل الإسلام 334(بتصرف)

139 /الإسلام يقود الحياة، الكتاب طافح بهذه المعاني

إن جذوة ماهية الإنسان في أدبيات النورسي لا تنطفئ لأنها حية متقدة باستمرار، لهذا فهو في مجابهات دائمة مع نفسه (الجهاد الأكبر) ومع المفسدين والواقع الفاسد، وإن كملت المجابهة في شق (وهو محال)، فتحت له آفاق جديدة للبذل المستمر، بل إن المطالبة بالتغير وفق ما تقتضيه ماهية الإنسان تتطلّب مراقبة دائمة لا يمكن أن يفتر عنها الإنسان في لحظة من اللحظات، لأنه ركّب نفسيا على النزوع إلى الدعة والراحة واستثقال الطاعة والميل إلى المعاصي، وهو ما جعل القرآن الكريم يركّز على التذكير أكثر من تركيزه على الاستدلال.

إن جعل طاعة الله تعالى هدفا للمسيرة الإنسانية وغاية نهائية للتحرّك الحضاري الصالح يمنح ماهية الإنسان تركيبا عقديا، يمد حركة بناء الحضارة بوقود لا ينفد،لأنه هدف كلي ينسحب على جميع تصرفات البشر (فكرية، واجتماعية، وتربوية، و..) هدف متميّز بوظيفته الإنسانية الظاهرة، وظيفة تجعل الأهداف المرحلية منضبطة بها وسائرة في فلكها، إذ يعد تغليب الأهداف الجزئية على الأهداف الكلية موقعا في الظلم والقهر والاستبداد، فمن جعل غايته الفرعية كلية كالاستحواذ على السلطان أو المال أو الجاه أو.. فقد البعد الإنساني في تصرفاته فيقع في المحذور والمحظور من ظلم وقهر و.. أما إذا جعل الأهداف الجزئية مصبغة بالهدف الكلي المحدد بالماهية فإنه سيتمكن من جني الثمار الاجتماعية والإنسانية المرجوة منها، لأننا وفق هذا التصور نرفع الحضارة إلى مستوى القداسة.[140]

فقد نجحت رسائل النور في الاقتباس من القرآن الكريم والنسج على منواله في أساسها العقدي من جهة وتساوقها مع مكونات النفس البشرية، إذ ليس بمستطاع الخطاب العقدي الصحيح أن يؤتي أكله ما لم يكن متناغما مع

---

140 /دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن/مالك بن نبي 30-40

مكونـات الـنفس البـشرية، وقـد رام القـرآن الكـريم تحقيـق مقاصـده وفـق مـا استودع الله سبحانه وتعـالى فـي مكونـات الـنفس البـشرية،فنبّه الإنـسان إلـى الأساس العقدي الذي تقوم عليها علاقـة الإنـسان بـالله والكون وأخيـه الإنـسان ليؤكد الأساس العقدي لرسالة المسلم في الحياة، وأحدث بذلك التنبيـه " **أعظم انقلاب يحدث ضمن المخلوقات ودائرة الممكنـات فـي تـاريخ العـالم.. وهو الآخـرة، ويرشـده إلـى أعظـم مـسألة تخـصه وهـو الحامـل للأمانــة الكبـرى وخلافة الأرضتلك.. هي مسألة التوحيد (الأساس العقدي) الـذي يـدور عليـه سعادته وشقاوته الأبديتان، وفي الوقت نفسه يزيل القرآن الشبهات الواردة دون انقطـاع، ويحطم أشد أنـواع الجحـود والإنكـار المقيـت "**[141] **بأسـاليب الحوار العقدي** المتضمنة فيه، فكان معملا لأسلوبي البناء والهدم فـي اللحظـة نفسها، فينشئ عقيدة التنزيـه علـى أنقاض عقيدة سـابقة الوثنيـة، يحلـي القلب بالتوحيد فـي اللحظـة نفسها التـي يخليـه مـن الشرك وفق مسلك أهل السلوك بطريقـة التحليـة والتخليـة فـي اللحظـة نفسها، تحليـة وتخليـة عقليـة وقلبيـة فـي الوقت نفسه.

ج/التركيب الأخلاقي لماهية الإنسان:

بناء العدالة الاجتماعية وتحمل مشاق البناء الصالح بحاجة إلى دوافع تنبع مـن الوجـدان بوصـفه وعـاء الـشعور و الإحـساس بالمـسؤولية، تواجـه هـذه الدوافع عقبة كأداء تحول دون نموها بل قد تهددها بـالزوال، لهذا قلمـا يوفق الإنسان فـي تجاوزهـا، ولعل أهم تلك المعوقـات الانشداد إلـى الدنيا وزينتهـا والتي سماها الرسول ρ "الوهن حب الدنيا وكراهية الموت.[142]

141 /الشعاعات 311

142 /الصدر مصدر سابق، ولـه أيضا موجز في أصول الدين135،أخرج الحديث أبو داود في سننه(الملاحم) بلفظ:" يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها فقال قائل ومن قلـة نحن يومئذ قـال بل أنتم كثير ولكنكم غثاء كغثـاء السيل ولنـزعن الله مـن صـدور

يجمد الانشداد إلى الدنيا الإنسان ويكبحه عن المساهمة في بناء الحضارة، لأن البناء الحضاري مطلب كبير يقتضي بذل أنواع كثيرة من التضحيات التي تتلبّس بالجهد العقلي حينا وبالجهد العضلي حينا آخر والمالي حينا ثالثا...

ونظرا لخطورة الارتباط بالدنيا والانشداد إليها نبّه القرآن الكريم والسن المطهّرة إلى خطورتها، قال تعالى (**يا أيّها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم وأولادكم عن ذكر الله)**(المنافقون: 9) **(المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربّك ثوابا وخير أملا)**(الكهف:46)، وورد في السنة **"من كانت الآخرة همّه جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا وهي راغمة ومن كانت الدنيا همّه جعل الله فقره بين عينيه وفرّق عليه شمله ولم يأته من الدنيا إلا ما قدّر له"**[(143)]

ولكن هل يمكن أن يطلّق الإنسان الدنيا وفيها معاشه؟

ليس المطلوب تطليقها خاصة وهي مسخّرة له بأمر خالقها، بل الغرض هو انتزاع التعلّق بها والانشداد إليها في حياته، لهذا أمر الشارع بالاستثمار الراشد وحرّم الانشداد إليها، لأنه في الحال هذه جعل الدنيا هدفا كليا تهون أمامه جميع المحرّمات فيقع الهرج والمرج ،فتتحول الدنيا إلى لهو ولعب وفساد وإفساد.

إن رفض الانشداد معناه إنزال الدنيا منزلة الطريق المفضي إلى الآخرة، وهي بمثابة ورقة امتحان إما أن يدخل بها صاحبها الجنة أو النار.

وهكذا كانت الدنيا بأهدافها الجزئية وسيلة لتحقيق غاية عظمى بأهداف اجتماعية وإنسانية، بمعنى أننا لا نرفض الدنيا ولكن نرفض الانشداد إليها،

عدوّكم المهابة منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن فقال قائل يا رسول وما الوهن قال حبّ الدنيا وكراهية الموت"

143 /أخرجه الترمذي في سننه(صفة القيامة والرقائق والورع)

أي أنها ليست مطلوبة في ذاتها، بل هي من أهم وسائل القيام بمهام الوظيفة الاجتماعية، فيكون بذلك خيرها مدرورا من الحق على الخلق ومن الخلق على الخلق بأمر الله تعالى، وبهذا الصدد يقول **النورسي**: "أخال أن سببا من أسباب عدم تأثير نصيحة الناصحين في هذا الزمان هو: **أنهم يقولون لسيء الخلق: لا تحسدوا، ولا تحرصوا، ولا تعادوا، ولا تحبوا الدنيا، بمعنى أنهم يقولون لهم غيّروا فطرتكم، وهو تكليف لا يطيقونه في الظاهر، ولكن لو يقولون لهم: اصرفوا وجوه هذه الصفات إلى أمور الخير، غيّروا مجراها، فعندئذ تجدي النصيحة وتؤثر في النفوس، وتكون ضمن نطاق إرادة الإنسان"**[144] وبهذا يتضح أن مركزية الأخلاق في التغيير الإسلامي المنبثق عن الرؤية التوحيدية للعالم، فلا يتصوّر إسلام بلا أخلاق كما لا تتصور أخلاق موضوعية خارج التوحيد الضابط لماهية الإنسان المستنبطة من القرآن الكريم، لهذا كانت ماهية الإنسان في الرؤية التوحيدية ووفق ما وضّحه النورسي سبيل الحرية وتذكير الإنسان بوظيفته التي من أهم أبعادها تحقيق البعد الإنساني في مطلق تصرفاته، وتصرفاته الاجتماعية على الخصوص، وبهذا يصح لنا القول بأن الحرية الشرعية الوثيقة الصلة بماهية الإنسان في الرؤية القرآنية هي أساس الوظيفة الاجتماعية للمسلم.

د/ فوائد القيام بالوظيفة ومعوّقاته:

بيّن من العنوان أننا سنتناول بالدراسة والتحليل فوائد القيام بالوظيفة الاجتماعية من جهة، وأهم معوّقاتها من جهة أخرى، لأن التربية القرآنية بقدر ما تبيّن الفوائد تنبّه إلى المعوّقات بغرض تلافيها وأخذها بعين الاعتبار حين القيام بالفعل أو حين تبليغه، وبذلك تحقق الواقعية في التصرّف.

---

144 /المكتوبات 41-42

الفوائد المترتبة عليها[145]

1/ القيام بهذه الوظيفة دواء لمشكل الفناء ومعالجته بالبقاء الذي تكرّم به الله(السلطان)، والذي يحد تكرم صرف من قبل الخالق الرازق، ويتجلى هذا الربح فيما يأتي:

أ / بيع الأمانة إلى مالكها الحقيقي، وفي هذا البيع خمس درجات من الربح في صفقة واحدة، يعود ربحها على البائع تكرما من المالك الأصلي.

الربح الأول:

المال الفاني يجد البقاء،لأن العمر الزائل الذي يوهب للحي الباقي، ويبذل في سبيله سبحانه، ينقلب عمرا أبديا باقيا،عندئذ تثمر دقائق العمر ثمارا يانعة وأزاهير سعادة وضاءة في عالم البقاء مثلما تفنى ظاهرا وتنشق عنها الأزهار والسنابل.

الربح الثاني:

الثمن الجنة أنظر كرم الله عليك يخلق ويمدّك بعناصر الوجود والبقاء فإذا صرفتها وفق مراده الذي فيه صلاحك وصلاح بني الإنسان بل الكون كلّه أكرمه بالفلاح يوم القيامة.

الربح الثالث:

يرتفع ثمن كل عضو وحاسة ويعلو من الواحدة إلى الألف، وفق ما تبذله من جهد يكون الخير فيه مجعولا للخلق من الحق بما يتكرّم به الخلق على بعضهم بعضا وفق أمر الله تعالى وتوجيهاته.

الربح الرابع:

---

145 /الكلمات354،351

استعمال الأعضاء في أصل ما جعلت لها، وفي ذلك تزكيتها وتثمينها، فقد جعلت للطاعة وطاعاتها متنوعة تنوّع الأعضاء نفسها، وبهذا تتعدد الطاعات وتتعدد المنافع وآثارها في الكون والحياة.

***/معوقات القيام بالوظيفة الاجتماعية [146]**

المعوّقات جمع معوّق وهو كل ما يحول دون الوصول إلى الغاية من الوظيفة، وتتجلى تلك المعوّقات في العناصر النفسية بالدرجة الأولى وما يترتّب عليها من مواقف سلوكية وفكرية تترجم في مواقف اجتماعية.

أ/**الأنانية:**

الإنسان الذي يعتمد على أنانيته وغروره ويقع في شراك ظلمات الغفلة ويبتلى بأغلال الضلالة القاتلة، وقد عمل النورسي على التذكير بخطورة هذا الداء في كثير مكن المواضع والمواضيع، فقال في بعضها: **"من نسيانك نفسك إلى درجة تنقلب شعرة الأنانية حبلا غليظا، لأنك لما نسيت الله بالهوى، فأنساك نفسك، تغلظت أنانيتك فتفسّقت من قشرها المتشقق بكبرها"**[147]، وقال أيضا في وصية لإخوانه: "إن أول ما نوصيه.. الحفاظ على الرابطة فيما بينكم، و**الحذر من الأنانية** والغرور والمزاحمة، مع أخذ الحذر وضبط النفس"[148]

ب/الكفر:

بينما الكفر يجعل الإنسان حيوانا مفترسا في غاية العجز، لما فيه من تكريس للأنانية والغفلة والبعد عن المحتوى الإنساني للعلاقات بين البشر، **لأن ماهية الكفر الكذب**[149]، كذب على النفس وكذب على الإنسان وكذب

---

146 /الكلمات354، 351
147 /المثنوي العربي 397
148 /الشعاعات 367
149 /صيقل الإسلام 417

على الكون وهو بالإضافة إلى كل ذلك كذب على الله، لهذا يظهر للكافر من منطلق كفره **أن الكون مليء بآلاف الأعداء المخيفين ... حتى ليجعل صاحبه في رعب دائم وألم مقيم وهلع ملازم واضطراب مستمر،... ويسكنه جحيما معنويا سالبا للسعادة إذ يريه الموت إعداما أبديا "**[150]

ج/الغفلة عن القيام بالوظيفة:

الغفلة سبب في عدم بيع النفس لله تعالى، فتستعمل في سبيل الهوى والنفس، فتتحول الأعضاء إلى أعضاء مشؤومة مزعجة عاجزة، ويتحمّل صاحبها آلام الماضي الحزينة وأهوال المستقبل المخيفة، فينحدر عندئذ إلى درك آلة ضارة مشؤومة[151]،

لهذا قال النورسي: "**إن حياة أرباب الضلالة والغفلة بل وجودهم وعالمهم ما هو إلا يومهم الحاضر، حيث الأزمنة الماضية كلها وما فيها من الكائنات معدومة، ميتة ،بسبب ضلالتهم، فتردهم من هناك حوالك الظلمات ... إنه بترديه في الغفلة فسدت متعته الحاضرة بما يرده من أحزان ، وما يرده من اضطراب جراء القلق على المستقبل ،فتتكدر حياته الحاضرة بالآلام والأوهام، سيما الملذات غير المشروعة "**[152] فضلا عن خسرانه خمس خسارات أخرى.[153]

الخسارة الأولى:

إن ما تحبه من مال وأولاد، وما تعشقه من هوى النفس وما تعجب به من حياة وشباب، سيضيع كله ويزول، مخلفا آثامه وآلامه مثقلة بها ظهرك.

الخسارة الثانية:

---

150 /المرجع السابق 519(بتصرف)
151 /الكلمات23
152 /الملاحق 174 (بتصرف)
153 /الكلمات 25

ستنال عقاب من يخون الأمانة، لأنك باستعمالك أثمن الآلات والأعضاء في أخس الأعمال قد ظلمت نفسك.

الخسارة الثالثة:

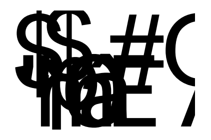
قد افتريت وجنيت على الحكمة الإلهية، إذ أسقطت جميع تلك الأجهزة الإنسانية الراقية إلى دركات الأنعام بل أضل.

الخسارة الرابع:

ستدعو بالويل والثبور دائما، وستئن من صدمة الفراق والزوال ووطأة تكاليف الحياة التي أرهقت الحياة بها كاهلك الضعيف مه أن فقرك قائم وعجزك دائم.

الخسارة الخامسة:

إن هدايا الرحمن الجميلة - كالعقل والقلب والعين وما شابهها - ما وهبت لك إلا لتهيّئك لفتح أبواب السعادة الأبدية، فما أعظمها خسارة أن تتحول تلك الهدايا إلى صورة مؤلمة تفتح لك أبواب جهنم.



يستشف مما سلف أن لماهية الإنسان صلة وثيقة بحريته في فكر النورسي، فمن اكتشفها وعمل على تجسيدها حرّره خالقه من مجموعة من المعوّقات والسجون لعل أهمها:

الأنانية، والغفلة فضلا عن الكفر وما ينجر عنها جميعا من آثار وخيمة على الإنسان والوسط الذي حوله.

وبيّن أيضا أن لهذه الحرية صلة وثيقة بالوظيفة الاجتماعية المنتظرة من الإنسان في إطار ماهيته، ولكل هذا أثارا محمودة على الأداء الاجتماعي والفكري لمن رام مرضاة ربّه باستحضاره الدائم لتلك الماهية في كنف الحضور الروحي المستمر مع خالقه جلّ وعلا.

وهكذا يتبيّن أن جهده رحمه الله كان متناغما كل التناغم مع الحقائق الإيمانية المبثوثة في دوحة القرآن الكريم، فكان قرآنيا في طرح أصل القضية وقرآنيا في وضع خطتها التفصيلية، فكانت الماهية والوظيفة مرتبطتان أشد الترابط بحيث لا تنفك إحداهما عن الأخرى،و قد تلخّصت في كونه خليفة الله على أرضه "**إني جاعل في الأرض خليفة** "، ولا يتأتى له القيام بتلك الوظيفة ما لم يكن حرا حرية تامة غير منقوصة، وكمال تلك الحرية أن يكون مكلفا، فالتكليف الشرعي أب الحرية الشرعية، أب الحرية ذات البعد الإنساني، مخرج الحرية من درك السلبية إلى أعلى درجات الإيجابية، وهي حين التلبّس بها - وفق هذا التحقيق والتحديد - واضعة الخطة العامة لوظيفة الإنسان في الكون، إنها السعي الدائم في كل شؤون الحياة نحو مرضاة الله ، بحيث لا يمكن تصور فعل من أفعاله خارج تلك الميزة والخاصية، وهذا يقتضي أن يراعي المكلّف أوامر من كلفه بعمارة الأرض

من خلال الالتزام بمتطلبات الوظيفة، وفي ذلك أظهر صور الإنسانية في التصرفات.

إننا يمكن أن نقول ودون مواربة أو مجاملة أنه كان بالقرآن وفي القرآن متحركا في وضع تصوره لماهية الإنسان وصلتها بحريته ووظيفته الاجتماعية، وذلك أقصر طريق لعودة البعد الإنساني في تصرفاتنا الفكرية والاجتماعية بل وحتى السياسية.

تم بحمد الله

الفهرس التفصيلي

الفصل الخامس

الفصل السادس